الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة عبد الحميد ابن باديس ـ مستغانم ـ

كلّية الآداب و الفنون

قسم الأدب العربي

UNIVERSITE Abdelhamid Ibn Badis MOSTAGANEM

مذكِّرة التخرّج لنيل شهادة الماستر في اللّغة و الأدب العربي تخصّص أدب وحضارة

بعنوان:

أزمة المنهج عند الجاحظ في كتاب البيان و التبيين

من إعداد الطالبة:

جبور حسنية

تحت إشراف:

د: دحماني نور الدِّين

الموسم الجامعي:2014 -2015

الإهــداء

قال الله تعالى: << وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا >>

ـ بداية أهدي هذه الثمرة إلى من حملتني تسعة أشهر بلا كدّ أو تذمر،إلى من سالت دموعها لأوّل منظر رأتني فيه ، إلى من أرضعتني ، حمتني ، علّمتني أن أعمل أجتهد و أصبر، إلى من لانت عليّ وحضنتني بعدما القلب تحجّر، إلى من وثقت بي وصدّقتني في كلّ الأحيان من دون أن تغدر، إلى من قال عنها سيّد وأنبل البشر، أمّك أمّك أمّك،أمّك ثمّ أبيك ، إلى أمّي الحبيبة أطال الله في عمرها ورزقها الصّحة والعافية وإلى من تعب وأجهد نفسه لأجل تعليمنا وتوفير لنا سُبلاً أسهل للحياة ، إلى من ضحّى بوقته خدمةً لمصلحتنا وراحتنا ، أهدي هذا العمل إلى من انسحب من الدّنيا و أوقاتها الجميلة ليُدخلنا إليها من بابها الواسع ، إلى من إذا سُئِل عن طموحاته و أحلامه أجاب أولادي، أولادي ، أولادي ، إلى أبي العزيز الحبيب ، أتمنّى له طول العمر وجزاه الله خيراً فاللّهمّ قدّرنا على ردّ له الجميل وشكره حتّى و إن كان هذا قليل ؛ إلى أساتذتي من الطور الابتدائي إلى الطور هذا ، فمن علّمني حرفًا صرت له عبدًا ، إلى من أرشدني وأضاء ليّ طريقي الشائك، من منحني الثقة و الإرادة ، إلى أستاذي المشرف دحماني نور الديّن؛ أهديه إلى من قاسماني الفرح و القرح ، من خاصماني على ألعاب الطفولة ، إلى من شاركاني الهموم ليالي الحرمان تلك ، إلى أخواي: مصطفى و نعيمة ؛ وأهدي هذا العمل المتواضع إلى من شاركاني أسراري ، من تهمّهما أخباري ، إلى صديقتاي : كريمة وسكينة وكافّة صديقاتي الأخريات:خديجة،فتيحة،هوّارية و فاطمة ؛ إلى الحضن الأحّن إلى من كانت ولا زالت نبرة صوته في مسمعي كالشجن إلى من كان خُلُقَه من أخلص أرقى معدن،إلى صاحب العصا المُتقن ذو العمامة

والمصنوعة من القطن ، إلى جدّي و نور دربي معلّمي و قدوتي ، رحمه الله و أسكنه فسيح جنّاته ورضي عنه ؛ أهدي هذه الوُريقات إلى من علا بها السنّ ولا تزال مضيئة إلى من علّمتني أن أكون جريئة ، من جعلتني امرأة قوّية صلبة في وجه الظلم والخطيئة إلى من زرعت في حبّ الأصالة وليالي الزمن الخالي ، من سردت لي قصص بطولات أجدادي مع ذاك الاحتلال ، إلى جدّتي أمدّ الله في عمرها و تركها بيننا رمزاً للبركة في زمن قلّت فيه البركات وتصلّبت فيه قلوب المخلوقات ، واندثرت فيه العادات.

ـ كما أهدي في النهاية هذا الإنجاز إلى كلّ من يعرف حسينة جبّور ،إلى كلّ من ساهم في تتمّته سواء من قريب أو من بعيد ، آملة من الله عزّ و جلّ أن يحمي لي أهلي،أحبابي والنّاس المقربّين منّي، أصحابي قرّة عيني ، اللّهمّ عليّ وليس عليهم ، فوفقّني في إخلاصي لهم ، وأرِهم خيرُا منِّي ، وأبقهم دائمًا سنداً لي كي أقوى بهم على هذه الدّنيا ومواجهة ما فيها من صعوبات،آمين يا ربّ العالمين.

وشكرًا

دعاء

- ربّي ارحمنا برحمتك،وأهدنا إلى طريقك،وامنحنا عفوك

و مغفرتك،وكن معنا وقت الشدائد،ولا تجعلنا ننسى فضلك،قوّي قلوبنا

بالإيمان،وسيّج حياتنا بدفق من الأمان،وأنر طريقنا بضياك،ولا تملأ حياتنا

بشيء غير عبادتك، ربّنا ولا تُحمّلنا مالا طاقة لنا به، وبعّد عنّا

أيّ شيء فيه معصية لك، وقرّبنا من طريقك المستقيم،ربّنا إنّا نعوذ بك من

أفعال الشيطان،ومن غدر الزمان،ومن إتباع شهوات الدّنيا والنّكران، اللّهمّ

ثبّت أقدامنا على الهدى،واجعل لكلماتنا

صدى،واستجب لدعواتنا،واقبل أعمالنا،إنّك إن تقل للشيء

كن فيكون، آمين يا أرحم الراحمين.

يا ربّ ooo

المقدّمة

بسم من سبّب الأسباب وخلق آدم وحوّاء من تراب، رافع السماء والسحاب، رازق الإنسان و الدواب، بسم الله التوّاب والحمد لله ربِّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا و حبيبنا، مرشدنا وشفيعنا يوم القيامة محمدًا وعلى آله وصحبه ومن اتّبع سنّته بإحسان إلى يوم الدّين.

وبعد:

ـ تشبّه اللّغة العربية بالبحر فكلّما غرفت منه ازددت عطشاً، كذلك أنّ هذا البحر لا يجفّ أبداً فهو في تدّفقٍ غير زائل، ويكفينا فخراً أنّها لغة القرآن الكريم ولغة آل الجنّة، والكنز المكوّن لعُمق هذا البحر هو الأدب العربي فهو في تطوّرٍ دائم فلا تكاد تمرّ عليه حقبة إلاّ استغلها لتكميل صورته بدءاً بالعصر الجاهلي حيث تمثل في كثرة الدواوين الشعرية حتّى سُمِّي الشعر آنذاك بديوان العرب، والمميّز فيه كونه ارتجالي يُنظم من العامّ و الخاصّ، ولمّا جاء القرآن الكريم هذّب الموروث الشعري و النثري و أكسبه ميزة إسلامية ظاهرة للعيان، ليكتمل تطوّر الأدب على يدّ العصر الأموي بظهور عدّة أغراض للشعر خاصّة كالشعر السياسي، لتمضي هذه الفترة فاسحة المجال للعصر الذهبي للأمّة الذي صُبِغ فيه أدبنا بصبغة ذهبية في كلا الفرعين "النثر أو الشعر "فالجديد في الشعر مثلاً "الشعر الكاريكاتيري "الساخر، وأمّا النثر فكان ممثلاً في تدوين الملاحظات البلاغية، ليبرز علماء كبار بمؤلفات ضخام قوّت عماد اللّغة العربية عموماً أو زادت من ثراء أدبنا العربي، ومن هؤلاء: المبرّد، ابن قتيبة، معمّر المثنّى والجاحظ؛ وعلى ضوء هذا وبالربط مع أهمّية هذا الجانب "البلاغي" ما ارتأينا إلاّ أن نتخّذ واحداً منهم كعنوان لدراستنا هذه فكان الجاحظ وبخاصّة منهجه المتّبع، فعُنوِن بحثنا ب:**أزمة المنهج الاستطرادي في كتاب البيان والتبيين للجاحظ**؛ وعليه صار من حقّنا التساؤل عن ماهية هذا المنهج، ثمّ هل له قواعد ومميّزات تخصّه، وإن كانت فما الدافع لإتّباع الجاحظ هذا الطريق ومخالفة الجماعة؟ هذه

الأسئلة و أخرى سنجيب عنها إن شاء المولى في طيّات هذه الدّراسة التي قسّمناها إلى ثلاثة فصول واضعين لها مدخلاً دار حول الجاحظ وكتابه، أمّا عن الفصول فكان عنوان الأوّل: **أوّليات حول المنهج الاستطرادي،** مدرجين تحته مبحثين الأوّل: حول المنهج الاستطرادي ومميزاته، متطرّقين فيه إلى تعريفه اللّغوي والاصطلاحي مع ذكر بعضاً من مميزاته، والمبحث الثاني تحت عنوان: دوافع إتّباع الجاحظ المنهج الاستطرادي، معالجين فيه أهمّ الأسباب الدافعة بالجاحظ إلى سلوك هذا المسلك، ثمّ الفصل الثاني المُعنون ب:**نماذج الاستطراد في كتاب البيان والتبيين،** مجزّئين إيّاه إلى ثلاثة مباحث؛ الأوّل حول قضية البيان والدّلالة ذاكرين فيه كلّ من البيان والدّلالة عند الجاحظ إضافة ثمّ التطرّق لأهمّ الاستطرادات فيه، لنمرّ للمبحث الثاني الذي ضمّ قضية البلاغة و حوى في أرجائه البلاغة عند الجاحظ وعرضنا بعض النماذج للاستطراد الواردة هنا؛ واصلين إلى المبحث الثالث: الذي كان محوره حول الخطابة، آتين بفنّ الخطابة عند الجاحظ إلى جانب بعض استطرادات هذه المحطّة؛ أمّا الفصل الثالث والأخير فعنوانه: **تأثر الدَّارسين بمنهج الجاحظ** فيما يخصّ كلّ من القدماء و المحدثين ،فقد قُسِّم إلى مبحثين أوّلهما تمثّل في تأثر القدماء بمنهج الجاحظ ،آخذين أمثلة لأعلام تأثّروا به أمثال: أبي الهلال العسكري، ابن رشيق القيرواني، ابن وهب؛ مع ذكر أهمّ النقاط التشابه بينهم وبين الجاحظ وما ضمّنه في مؤَلَفه، ليأتي المبحث الثاني تحت عنوان: تأثر المحدثين بمنهج الجاحظ متناولين نظرية التلقيّ أنموذجًا حيث اشتمل محتوى هذا المبحث على ذكر أهمّ روّادها وكذا أهمّ إجراءاتها، واصلين بعد كلّ هذا إلى نقاط تقاطع الجاحظ مع النظرية هذه؛ إذاً هذا كلّه فيما يخصّ الخطّة لهذه الدّراسة التي سُقنا فيها وفقاً لسببين: ذاتي راجع لتأثّرنا وشدّة ميولنا إلى شيخ البلاغة وكلّ منجزاته القيّمة، أمّا الموضوعي فبدافع تبيان هذا المنهج واكتشاف خباياه و أسسه؛ خاطين خطانا هذه طبَقاً لمنهج تاريخي كتعرّضنا للتعريف ببعض الأعلام والشخصيات مع ذكر تواريخ ميلادها وغيرها، وتحليلي من خلال تطبيقنا لبعض المميّزات و استخراجنا بعض الاستطرادات من كتاب البيان والتبيين وتحليل بعض الأقوال وفقًا على مفهومنا الخاصّ لها،؛مرتكزين في كلّ هذا و ذاك على مصادر عدّة أهمّها المصدر نفسه أيّ

البيان والتبيين لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ بتحقيقيه الصادرين عن كلٍّ من محمد هارون عبد السلام و عليّ أبو ملحم، إضافة إلى كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ،وكذا كتاب العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده لابن رشيق القيرواني وكذا قطوف أدبية ـ دراسات نقدية في التراث العربي تحقيق حول التراث للدكتور محمد عبد السلام هارون وغيرها من المصادر التي أثرت دراستنا هذه ،ولنواصل درب هذا البحث والحمد للّه لم نشهد من خلال إنجازه أيّة صعوبة بخلاف ضيق الوقت موازاة بزخم المعلومات و تعذّر التدوين.

ـ وقد ذيّلنا بحثنا بمجموعة من النقاط المستنتجة من جميع الفصول بغية توصيل الفهم المختصر إلى كافّة من يتصّفح هذه الدّراسة سواء أكان من أهلها أولا المهّم عندنا وكما قال الجاحظ: "لأنّ مدار الأمر الفهم و الإفهام"؛ آملين أن يتحقق و يطبّق هذا القول فيما قمنا به لحدّ الساعة؛ كما لا ننسى أن نشكر كلّ من مدّنا يدّ العون حتّى ولو كانت بكلمة تشجيعية فقط، وتظلّ هذه الدّراسة ثمرة سُقيت ولقيت العناية من شتّى الأيدي، راجين المولى جلّ وعلا أن يوفقّنا و يسدّد خطانا هذه ويفرش لنا أرضية العلم إيماناً، عزيمةً، وإرادة، إخلاصًا وتفانٍ كي لا نحطّ من قيمة بحث و نرفع من آخر.

ـ فتقبّلوا يا قارئي هذه السطور الكلمات البسيطة هذه النابعة من القلب على أمل أن تجتاز الآذان إلى دخول القلب الآخر.

وشكراً

1- التعريف بصاحب الكتاب [مولد الجاحظ ونشأته، شيوخه، مؤلفاته ،آراء القدماء فيه...]

تمهيد:

- يقال عن الأدب هذا النشاط الإنساني أنّه كائن حي و على حسب تقديرنا الخاص فانّ سبب هذه التسمية راجع للمراحل التي يعبرها أدب قوم من فترة إلى فترة زمنية متباينة بالضرورة عمّا سبقها ،إذا فالأدب العربي مثله مثل غيره من الآداب الأخرى فقد خضع لمثل هذه المراحل بغرض التطوّر أو تماشيا مع تغيرات المحيط والبيئة، فكان أولى المراحل العهد الجاهلي حيث احتل فيه الشعر الريادة من اهتمامات العرب آنذاك فسمي ب ديوان العرب، بعدها العصر الإسلامي الذي هذّب ذاك الموروث الشعري وأعطاه البعد الإسلامي الأخلاقي ،ليليه العصر الأموي إلي كشف فيه الغطاء عن نوع أو غرض جديد للشعر ألا و هو الشعر السياسي و هذا ربطا بظهور الأحزاب آنذاك ، ليغلق هذا العصر بابه فاتحا المجال أمام تشكل عهد جديد العهد العباسي أو كما أشتهر بالعهد الذهبي لتنوع المعارف و العلوم و الآداب فيه لتداخل الجنس العربي واشتراكه مع عدة أجناس أخر – كالفرس ،الترك، الروم...

- أمّا عن الجاحظ فقد حالفه الحظ أن عاش و عايش كبار وأئمة الأدب العربي الذين ظهروا في عصر زاخر بالعلوم والآداب، عصر هارون و المتوكل والمأمون...فكانت الحياة الأدبية وبالأخص حركة التأليف حينها باسطة حدودها على كل من معاهد البصرة والكوفة وقرطبة، فبات للتأليف و الترجمة سخب شديد في شتى المعمورة لذا فقد جمل النشاط الأدبي في هذا العصر و أختصر في ثلاثة أدباء و مؤلفين هم:* أبو عبيدة معمر بن المثنى[110- 209هـ] كان من أهل البصرة ولد وتربى بها حيث قاربت تصانيفه حوالي ألمائتي تصنيف ،وقال فيه الجاحظ: "لم يكن في الأرض خارجي أو جماعي أعلم بجميع العلم منه"[1]

*أبو الحسن علي بن محمد المدائني [135-225هـ] كثرت مؤلفاته حتى بلغت المائتين والأربعين مؤلف *هشام بن محمد الكلني الكوفي[ت 602هـ] له نحو المائة و الأربعين

[1] -ينظر: قطوف أدبية - دراسات نقدية في التراث العربي - تحقيق حول التراث لعبد السلام هارون - مكتبة السنة- ربيع الخير 1409هـ - نوفمبر 1988م ص 180

مؤلف *هشام بن محمد الكلني الكوفي[ت 602هـ] له نحو المائة و الأربعين كتاب *محمد بن إدريس الشافعي تاريخ ميلاده نفسه تاريخ ميلاد الجاحظ أي في [150هـ-204هـ] عرف على أنّه إمام العربية و الدين وأعتبر إماما للعربية على حسب محصلاتنا البحثية إذ أنّ الأصمعي قرأ عنه أشعار الهذليين ليقوم بضبطها و تنقيحها و يتبلور هذا الجهد في مؤلفيه <**الأمّ في مسائل الفقه، الرسالة** > ما جعل الجاحظ يقرّ بفضل و بأهمية ومدى رقي الذي بلغه هؤلاء الأئمة في كل من أمور الأدب و الدين و يظهر هذا من خلال قوله التالي :"نظرت في كتب هؤلاء النبغة الذين نبغوا في كتب العلم فلم أرى أحسن تأليفا من الغلبي، كأنّ لسانه ينظم الدّر " وان دلّ هذا القول على إنما هو دالّ على تأثر أبو عثمان فضلا عن معاصرته للبعض منهم فكيف لا يكون إماما من اتبع و سلك مسلك هذا الزخم من عظماء العربية و بالإضافة الى هذا العامل الذي أدخل الجاحظ سجل النبوغ الأدبي من بابه الواسع فقد كانت نعمة وهبه عمر أطول مكّنه من إثراء مكتبته أكثر فأكثر ناهيك عن شغفه بالمطالعة ، يا ترى إذا كان هذا كلّه التأليف فما هي الطرق التي استخدمت في بعث هذا الكنز و بثه بين الناس ؟

ـ لم تكن هناك مطبعات أو مكتبات آنذاك لكن هذا لا يجعلنا نهمل حقيقة جدّ مهمة ظهرت حينها آلا وهي كون أنّ هذا العصر كان نقطة تحوّل جذرية أي تحوّل من المشافهة الى التدوين و هذا ما عرف حينها بنظام الورّاقة المقصود هنا أن هيئة من الأدباء أو المؤلفين أو غيرهم من المعروفين في ذاك المجتمع كانت تقوم بجمع الكتب و المؤلفات ثمّ اعادة تدوينها و تصحيحها بعدها يجلدونها ليتمّ إخراجها و نشرها فمن أهمّ ورّاقون العهد العباسي ياقوت صاحب معجم الأدباء و ابن النديم ،ابن خلكان ... وعلاوة على ما تمّ ذكره فانّ هؤلاء الورّاقون كانوا يشكلون تكتلا يدعى بالهيئات الأدبية دورها الأساسي التشجيع على القراءة، النشر، وكذا إجازة مؤلفين تلك الكتب ففي عهد الخليفة المنصور فقد بلغت قيمة التشجيع[1] الذروة درجة أنّ معيار المكافأة تمثل في تقدير وزن الكتاب خاصة الكتب

[1] -قطوف أدبية ـ دراسات نقدية في التراث العربيـ حول تحقيق التراث ـ لعبد السلام هارون ص 182

المترجمة ذهبا، وقلت فيما سبق تشجيع القراءة نظرا أنّ القرّاء في تلك الآونة لم تكن في المستوى مقارنة مع نسبة المثاقفة و كثرة و سائل التثقيف.

ـ هذا كلّه عن الحياة الأدبية أمّا فيما يخص الحياة الفكري العقلية لهذه الفترة الحافلة بالتغييرات و التجديدات في مختلف المجالات فقد حظيت بفرصة التغير و التميّز بظهور علم جديد – علم الكلام –الذي اتخذ القرآن الكريم و كلام الله المصدر الأوّل للتشريع فانطوت تحت رايته عدّة فرق كلامية كلّ منها فسّر و فقه الدين وقفا على مفهوم معين أو جهة معينة وقد نشأ علم الكلام على اثر نقل الفلسفة و التبحّر فيها وهذا كلّه بفضل حركة الترجمة المزدهرة آنذاك و نقل الفلسفة و المنطق عن اليونان ، لتتعدد الفرق الكلامية فكانت الشيعة: التجأ إليه كلّ من يريد هدم الدين ،أخذوا بعض المبادئ من عند اليهود والمسيح، الخوارج: أوّل فرققة نشأت في الفكر الإسلامي ، سموا هكذا لخروجهم عن عليّ كرّم الله وجهه، الصوفية: و تعني الأخلاقيات المستمدة من الإسلام تأسست على يدّ الحسن البصيري ت 110هـ، ظهرت في القرنين الأوّل و الثاني للهجرة من أعلامها رابعة العدوية الملقبة بالعشق الالاهي ت 185ه و ذو النون المصري ت 245هـ،الأشاعرة ظهرت في القرن الثالث للهجرة ،نسبة الى مؤسسها الأشعري الذي كان ضمن فرقة المعتزلة ثمّ انبثق عنها، ومحمد الشهرستاني صاحب المؤلف المشهور أصحاب الملل و النحل ،جاءت الأشعرية بعد المعتزلة ،هذه الفرقة التي تعني لغويا التنحي والفراق وهي فرقة من أبرز الفرق الكلامية يومها تكوّنت من مجموعة من أهمّ مفكري ذاك العصر ،ترجع نشأتها إلى واصل بن العطاء حين اغتزل عن الإمام الهاشمي لاختلافهما حول تأويل مسألة فقهية، جعل المعتزلةا لعقل السلطة التامة على النقل.

ـ أمّا الجاحظ فقد انفرد على هذه الفرقة بفرقة فرعية أخذت اسمه أيّ الجاحظية (1) **التي** من[1]أهمّ مبادئها، أنّ المعارف كلّها ضرورية و ليس فيها شيء من أفعال العباد، ومعناها أنّ

[1] -ينظر: تاريخ آداب اللغة العربيةج2 ـ لد. جورجي زيدان ص 294

المعارف الإنسانية موجودة و بالفطرة في أيّة نفس بشرية والوسيلة للكشف عنها وإيضاحها للعيان هي التسلّح بالإرادة و العزيمة ،كذلك أنّ العباد لا يخلدون في النّار وأنّ الله لا يدخلهم النّار إنما النارّ هي من تتعرّف على أصحابها فتجذبهم اليها[1]،أيضا أنّ الله
لا يريد المعاصي و لا يسهو سبحانه جلّ و علا، يقرّون بالجوهر و أنّ الاجساد لا تتغير إنما المتغيّر هي الغايات و الأغراض[2]

1.1 ـ مولد الجاحظ و نشأته:

ـ هو أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب البصري المعتزلي الجاحظ الحدقي، ولد في البصرة وهناك اختلاف في سنة ولادته عند جلّ المؤرخين العرب ومعظم الروايات فمنها من يقول أنّها مائة و تسعة و خمسين للهجرة الموافق لسبع مائة و خمس وسبعين للميلاد ومنهم من يرجعها إلى حوالي مائة و ستين هجري ،لكنّ المتفق عليه هي سنة المائة وثمان و أربعين هـجري ،لكننا وجدنا نصّا مخالفا لهذه النصوص كلّها اذ يكشف عن سنة ميلاد الجاحظ و ينسبها إلى عام مائة و الخمسين للهجرة وهذا بدليل منه الجاحظ من خلال قول صدر عن المرزباني محدّثا المادي قال : حدّثني من رأى الجاحظ يبيع الخبز و السمك في سبحان قال الجاحظ: أنا أسنّ من أبي نوّاس بسنة ولدت في أوّل سنة المائة والخمسين وولد في آخرها. توفي الجاحظ عن عمر يناهز التسعين سنة[3] ولكننا عثرنا على نصّ يقرّ عكس المذكور آنفا حيث جاء فيه أنّه الجاحظ قارب الستة و التسعين حين أقعد به المرض و خانته الصّحة وهذا وقفا على ما صدر عن المبرّد لمّا دخل في مرّ من المرّات على أبي عثمان وهو على فراش المرض ووقع الأنين سائلا ايّاه عن حاله تلك فردّ عليه الجاحظ قائلا : كيف يكون من نصفه مفلوج لو حزّ بالمناشير ما شعر به نصفه الآخر منقرس

[1] -ينظر: تاريخ آداب اللغة العربيةج2 ـ لد. جورجي زيدان ص 295
[2] -المعجم المفصل في الأدب للدكتور محمد التو ينجي ج1- دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ ط1-1413ه÷ - 1993م
[3] -معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ـج4 ـ أبي عبيد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي الحموي ـ عليّ القاسم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت لبنان ـ ط1 - 1411هـ -1991م ص 473

لو طار الذباب بقربه لآلمه، وأشدّ من ذلك ست و تسعون أنا فيها[1].أيّ أن الجاحظ قد أصيب الشلل النصفي كما يسميه الطب حاليا وكثيرا ما يتواجد عند المسنين أو حتى الكهال أو عند الذين لديهم ضغط الدم ،أمّا عن النصف الثاني فيسمى عند الأطباء ب هشاشة الأعضاء ولا يتواجد ألاّ عند الطاعنين في السنّ وهذا راجع الى ضعف الجهاز المناعي الناتج عن فقدان الخلايا اللمفاوية وظيفتها الدفاعية عن الجسم لدرجة أّه ولو وخزت الجسم ذاك شوكة لكانت لها آثار وخيمة نتيجتها في معظم الأحايين التعفن ما ينجم عنه البتر بالضرورة.

ـ عاش الجاحظ حياة مليئة بالأحداث الصاخبة فقد اعتمد على نفسه منذ الصغر بعد أن فقد والده و ذاق طعم اليتم فكان يبيع السمك و الخبز لحمّالي السفن،ويكتري دكاكين الورّاقين ليلا للمطالعة و إن دلّت هذه النقطة على شيئا نّما هي دالّة على مدى شغف الجاحظ[2]بالقراءة العلم، العلوم إلى حدّ لا يوصف فلم يترك بابا للعلم و التعلّم الاّ طرقه، ومن ذلك أنّه كان يستمع للأعراب في سوق الربد الذي كان ملتقى للبدو ة الحضر وهذا لكون البادية لم تكن تبعد عن البصرة سوى ثلاثة أميال ليخرج أهل البصرة من تجار أو طالبي للعلم والمعرفة اللغوية ليلتقوا بالأهل البادية و ينقلون و يدوّنون ما صدر عنهم من أخبار وعلوم[3]

ـ فسوق المربد في العصر العباسي يذكرنا بسوق عكاظ في الجاهلي فأخذ الجاحظ الفصاحة عن العرب آنذاك مشافهة ليدوّنها ويصوغها بأسلوبه الخاص فكان ثمرة هذا الاجتهاد البيان و التبيين ،ولم يتوقف عند حدود الثقافة العربية فحسب إنما تجاوزها إلى الثقافة الفارسية عن طريق تأثره بابن المقفع[4]،و الثقافة اليونانية أنّه أخذ عن إسحاق بن حنين صاحب العشر مقالات في العين التي أبهرت عقل مختلف المستشرقين، حققه المستشرق الألماني ماكس

---

[1] -ينظر: الجاحظ دائرة معارف عصره ـ للدكتور فوزي عطوي ـ دار الفكر العربي ـط سنة 1412هـ ـ 1992م ص 16

[2] -ينظر: إطلالة على التراث العربي للدكتور عماد حسن مرزوق ـ مكتبة بستان المعرفة ـ الاسكندرية .مصر طبعة سنة 2008 ص 90

[3] –ينظر :المعجم المفصّل في الأدب ج2.محمد التو ينجي ـدار الكتب العلمية ـ بيروت. لبنان ط1: 1413هـ -1993م ص 781

[4]-ينظر :إطلالة على التراث العربي للدكتور عماد حسن مرزوق ص 90

مايرهوف وهي عبارة عن تلخيصات لما ذكر في الكتاب اليوناني الأصل ـ جالينوس في الطب ـ كذلك أخذ عن ماسويه.[1]

ـ نجد في هذا النطاق قول ل يموت الذي صرّح فيه بقرابته للجاحظ و أنّه خال أمّه واصفا أنّ جدّه كان حمّلا لعمرو بن قلع الكناني ومن هذا القول نستنتج أنّ أبا عثمان ذو أصل كناني و نجد تأكيد هذا الجزم في قول أبو القاسم البلخي :"الجاحظ كناني من أهل البصرة، كان الجاحظ من ذكاء و سرعة الخاطر حدّ جعله شائع بين أبناء عصره وعلمائه."[2]

ـ وقبل أن يغادر الحياة فقد عان الأمرين بسبب علّته تلك حتّى أنّه كان يطلي نصفه المشلول بالصندل والنصف الثاني بالكافور ،فالمعروف عن الصندل أنّه مادة توجد في الطبيعة تستخدم لطرد البرودة من الجسم ،أمّا عن الكافور فيستعمل للزينة كما يستعمل للتقليل من الحرارة.

ـ فكما رسمت الأقدار له خطّ البداية و الطريق نحو التألق و الشهرة و الإبداع ، عادت لترسم له خطّ النهاية وكان هذه المرّ على يد أكثر شيء أحبّه و قدّره في هذه الحياة ـ الكتب ـ لتقع عليه مكتبته وبالتحديد فوق الرّأس ليموت الجاحظ ، لكن وكما يقال صاحب الكلمة حيّ لا يموت، فقد كان أبا عثمان بابا مفتوح على مصراعيه للعلم فرحل تاركا هذا الباب مفتوحا ليدخله العديد من بعده من علماء و أدباء ،وعلى إثره فتحت العديد من الأبواب المتجددة البنية على الأساس الجاحظي المتين.

2.1- شيوخ و مآخذ الجاحظ:

*أبي إسحاق النّظام: كان شيخ الجاحظ على يده تلقى أصول الاعتزال فأدركها لينشأ فرقة بنيت على الفكر الفلسفي كانت الجاحظية.

[1]-ينظر: جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي الإسلامي و نشره ـ للدكتور: عبأس محمد حسن سليمان ـدار المعرفة الجامعية ـ الاسكندرية .مصر ط 01 -2007م -1429هـ ص 164

[2] -معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب لأبي عبيد الله ياقوت بن عبد الله الرّومي الحموي ـ عليّ القاسم ج4 ص473

*الأخفش: هو محمد بن خليل أبو بكر المقرئ الأخفش الصغير الدمشقي, قرأ عن ابن الأحزم و قرأ عليه الحسن بن الحسين الهاشمي، كان يحفظ حوالي ثلاثة مائة بيت توفي سنة 306هـ أخذ الجاحظ عنه علم النحو و تعلّم مبادئه و تقنياته ليستقيم كلامه و تسلم لهجته من الخطأ.

*أبي عبيد معمّر بن المثنى :كما سلف الذكر هو أحد أعلام الأدب و اللغة العربية ذو أصل بصروي.

*أبي زيد الأنصاري

*صالح بن جناح اللّخمي[1]

3.1- مؤلفات الجاحظ:

ـ كان الجاحظ بحرا من بحور العلم كلّما غرفت منه ازددت عطشا، فمهما كثرت مؤلفاته لن تستطيع حصر ثقافة وغنى هذا الرجل الفكري ،أمّا إذا رجعنا إلى لغة الأرقام فإنّنا نتوقف عند الرقم الثلاثة مائة والستين[2]مؤلفا كما أشارت بعض الكتب ،وقد بسطت هذه المؤلفات اليدّ على مجالات مختلفة:(السياسة البلاغة، الأدب واللغة، النوادر والفنون ،الديانات والتاريخ، الطبيعيات ،الأخلاق ...الخ)، ونذكر منها : العثمانيةـ الفتيان ـ اللصوص ـ صياغة الكلام ـالتمثيل ـ أخلاق الملوك ـ فضل العلم ـ العرجان و البر صان ـ وجوب الإمامة ـ على اليهود ـ الصرحاء و الهجناء ـ الهملاج ـ المعاد و المعاش ـ البلدان ـ المعرفة ـ فضل الفرس ـ تحصين الأموال ـ الإخوان ـ حانوت عطّار ـ التسوية بين العرب و العجم ـ الحاسد و المحسودـ كتاب البخلاء، كما أنّ هناك بعض المؤلفات التي فيها لبس في قضية

[1] -تراجم طبقات النحاة و اللغويين و المفسرين و الفقهاء ـ الشيخ تقيّ الدّين ابن قاضي الشافعي ـ تحقيق د. محسن غياض ـ الدار العربية للموسوعات ـ بيروت .لبنان ـ ط1 2008م -1428هـ ص 79

[2] -ينظر: الجاحظ دائرة معارف عصره ـد.فوزي عطوي ص 13

نسبها إليه مثل كتاب التاج ـ وكتاب المحاسن و الأضداد، إضافة إلى أنّه كثيرا ما كان[1]يهدي بعضها إما للملوك أو للأمراء أو للولاّة و القضاة...وهي ظاهرة عرفت بطبيعة الحال في ذاك العصر بالمقابل يأخذ المال ثمنا لها ، و أ خصّ بالذكر كتاب البيان و التبيين الذي أهداه إلى القاضي أبي داوود ـ وكتاب الحيوان إلى الوزير محمد بن عبد الملك بنالزيّات، كذلك كتاب الزرع و النخيل الذي أهداه إلى بن العبّاس الصولي وكلّها مقابل خمسة آلاف دينار، ومنح كتاب مناقب الترك و عامّة جنود الخلافة إلى الوزير الفتح بن خاقان[2]

4.1:بعض أقوال القدماء في الجاحظ :

ـ أوّل قول نصطدم به في هذه النقطة هو لأبي هفّان الذي تعجب لأمر الجاحظ و مدى علاقته بالعلم و شدّة مطالعته للكتب لدرجة اكترائه دكاكين الورّاقين للمطالعة و تحصيل أكبر قدر من المعرفة المختلفة النواحي و المجالات و كلّ هذا كان في وقت قلّت فيه منسوبية القراءة بيد أنّه من المفترض أنتكون أكثر مقارنة مع نسبة الثقافة حينها، ونجد أنّ صاحب الموشّح ـ المرزباني ـ قد أشاد بالجاحظ كثيرا حيث ذكر في قول له أنّ الجاحظ كان علما من أعلام علم الكلام و شيخا برع فيه فأحسن الإلمام به و إدراكه و احكام و ضبط مختلف حدوده ،كما تطرّق [3] المرزباني للثناء على المجهود التأليفي له كونه وضع في كلّ حقل من شتى الحقول الحياتية مؤلفا أو ما يزيد عن ذلك ،فكان بهذا أبو عثمان أحسن النّاس تأليفا إذ ما أتينا إلى حقل الجدّ و الهزل، مثال البخلاء- التربيع و التدوير...وكان أعرفهم بالأخلاق ،وأ برعهم في تحصيل مختلف الآداب(كالفارسي ،اليوناني...)،و فيما يخصّ الجانب الديني فقد كان شيخا من أهمّ شيوخ المدرسة الاعتزالية وليس هذا فحسب إنّما

[1] -نقد العرب الأدبي في ثلاثة عصور- للدكتور مصطفى الصاوي الجويني ـ دار المعرفة الجامعية ـ الإسكندرية .مصر ـ طبعة سنة 1998 ص 76

[2] -رسائل الجاحظ ـ الفصول المختارة من كتب الجاحظ: اختيار الإمام عبد الله بن حسّان شرحه و علّق عليه:محمد باسل عيون السود ج1 ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .لبنان ـ طبعة سنة 1420هـ ـ 2000م

[3] -ينظر: معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ج4: أبي عبيد الله ياقوت بن عبد الّله الرّومي الحموي ص 662

مشيخته هذه تعدّت الحدود الاعتزالية إلى ما وراء ذلك بكثير ،فكان خير الرّجال تميّزا وأفضل الأدباء و المؤلفين إبداعا.[1]

2ـالتعريف بالمؤَلَف[تاريخ التأليف ـ دوافع التأليف ـ بعض الأقوال فيه ـ نسخه وطبعاته ...] :

1.2 ـ تاريخ تأليف كتاب البيان و التبيين للجاحظ :

ـ ألّف هذا الكتاب الجاحظ كما أشارت العديد من الأخبار في المرحلة الأخيرة من عمره أين عايش فيها جلّ أنواع السقم وعلى الأرجح أنّ هذا التأليف أتى بعد تأليفه لكتاب الحيوان حيث أكدّ هذا الاعتقاد قول له عثرنا عليه في كتابه **<البيان و التبيين>**فقال فيه :"كانت العادة في كتب الحيوان أن أجعل في كلّ مصحف من مصاحفها عشر ورقات من مقطعات العرب و النوادر و الأشعار لما ذكرت من عجبت بذلك ، فأحببت أن يكون حظّ هذا الكتاب في ذلك ..." أيّ أنّه اعتاد على طريقة متميزة في التأليف آلا و هي تطرّقه لأخبار ووصف أحوال العرب والعربية في جلّ كتاباته حتى و إن كانت طبيعة المؤلَف لا تتلاءم و ذاك الذكر ، فكأنّ الجاحظ أراد تجسيد و إيصال صورة العرب إلى كافة الأذهان سواء أكانت من نفس الجنس أو مختلفة عنه أو الأمر راجع إلى الطبيعة الاستطرادية المطبوعة فيه التي ربما جعلته وعن غير قصد يبثّ موضوع في موضوع آخر ،وهذا ما سنكتشفه في الصفحات القادمة من هذه الدراسة إن شاء المولى.[2]

[1] -ينظر: البيان و التبيين ج1 ـ أبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق محمد عبد السلام هارونـ مكتبة الخانجي القاهرة .مصر ط7: 1418هـ -1998م ص 15

[2]-ينظر: النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين:محمد الصغير بناني ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ بن عكنون .الجزائر طبعة سنة 1994 ص 28-33

2.2 ـ دوافع تأليف البيان و التبيين:

لقد انبسطت ظروف تأليف هذا المؤلَف على مجالات عدّة صنّفناها كالآتي:

1- الاجتماعية: [1]

ـ كما هو معلوم فانّ الجاحظ كان من عصر الدولة العباسية فقد عاصر عدّة من خلفائها مثال:[هارون الرشيد 170هـ ،الأمين 193هـ ،المأمون 198هـ ،المعتصم 218هـ ،الواثق بالله 227هـ ،المتوكل 232هـ ،المنتصر 247هـ ، المستعين 248هـ المعتز 252هـ ،المهدي 255هـ] ، وعلاوة على هذا كلّه فانّ لخلافة العباسية شهدت رقي عال جدّا في شتى مناحي الحياة ،كذلك اتساع رقعتها الجغرافية ما نتج عنه اختلاط الأجناس أبرزهم " الرّوم، الفرس، الترك" لكنّ الجنس الأكثر انتشارا و سيطرة آنذاك هو الجنس الفارسي حتى بات العربي يحسّ نفسه غريبا وهو في مجتمعه و بين أهله ما دفع جملة من أدباء تلك الحقبة إلى تناول أقلامهم و استخدام أفكارهم كترجمان لأحاسيسهم و للدفاع عن أصول العربية، أمّا الجاحظ فقد كان من أبرزهم و أسبقهم حيث دفعت به نفسيته المليئة بالشعور بالمرارة و الخيبة إلى الردّ عن ذلك تارة بالعنف مستعملا وسائله الفكرية و تارة أخرى بالصبر و الاستسلام.

2- السياسية:

ـ اضطراب السياسة فحينها بلغ أشدّه اذ أنّ الدولة العباسية آنذاك تخللتها اضطرارات ولا استقرار لظهور التمرّدات و الفتن الكثيرة و قتل خلفاء و تعاقب آخرين على كرسي الخلافة[2] ،وهذا بالذات ما لمسناه من خلال تصفحنا اكتاب البيان و التبيين حتى و ان لم ترد لفظة السياسة نفسها إلاّ أنّ الجاحظ أنى بما يقابلها من أمثال ـ أسباب، تدبير ،دهاء...ـ

3- الاقتصادية:

جاءت في كتاب البيان و التبيين باسم الآلة و هذا فعلا لخير دليل على اهتمام الجاحظ بهذا الجانب، على حسب الظروف الاقتصادية حينها التي كانت تعتبر التجارة العصب المحرّك

---

[1] -ينظر: النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية من خلال البيان و التبيين للجاحظ ـ محمد الصغير بناني ص 35

لها، فقد شملت التجارة جميع مناحي الحياة حتى فنّ القول و بالتحديد الشعر،ففي نفس العصر تهاتف الشعراء على غرض المدح أكثر من غيره لدرجة أنّه لو وضعناه في كفّة وباقي الأغراض في الكّفة الموالية لرجُحت له الكفّة بكلّ تأكيد، وذلك لحصاد الجوائز والهدايا من الملوك والأمراء والوزراء...،ولعلّ أبين تجسيد الدّال على تأثر الجاحظ واهتمامه بذات الجانب هو عمله الفنّي الملخص في كتاب البخلاء، أمّا من خلال البيان و التبيين فيظهر في باب العصا حيث اتخذ فيه الجاحظ ثلاثة مواقف :الأوّل حين دافع عن أساليبالعرب و شتى طرقهن المعيشية، وموقف هاجم فيه و انتقد بحدّة مختلف النظم الاقتصادية للعجم، وثالث الموقف الذي لعب فيه الجاحظ دور الوسط فتوسط الموقفين.[1]

4 - الثقافية:

- تجلّت في الديّن و كلّ ما يعنيه ، فالصراع بين العرب و العجم حين ذاك كان محتدما خاصة في الميدان الثقافي ،فأهمّ القضايا التي اعتبرت كفتيل لتلك النّار التي شبّت بينهما تمثلت في ثلاث وهي :العقيدة التي امتازت بتعدد المذاهب و ظهور الفرق الكلامية ما دفع بالعجم إلى التشكيك في معتقدات العرب الأمر الذي جرّ بالجاحظ إلى الدفاع عنها بكلّ ما استطاع ، ونصّ على أنّ كلام الله مخالف لما جاء به بنو البشر ولعل هذا ما حوته فرقته الجاحظية[2]،وثاني القضايا كانت أصل العرب، فدافع عن أصل القرآن مرتبط بالضرورة بالدفاع عن أصل العرب، و آخر القضايا ،قضية الإعجاز،ونعني به جميع مظاهره للغوية والبيانية وقد ذكره الجاحظ و تطرّق إليه والى كلّ ما سلف التعرّض له في مؤلَفه البيان والتبيين.

3. بعض أقوال القدماء في مدى أهمية كتاب البيان و التبيين:

بدءا بأبي الهلال العسكري حيث اعتبره من أهمّ و أضخم الكتب التي وُضعت في خزانة الأدب العربي ولم يتوقف عند هذا القدر بل حلف و أقسم على أنّه ذو فوائد جمّى وأتى كلّ هذا في قوله:" وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان و التبيين، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمّ المنافع ،لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة،

[1] -ينظر: النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية من خلال البيان و التبيين للجاحظ - محمذ الضغير بناني ص37
[2]-ينظر: المرجع نفسه - ص 37

والفقر اللطيفة، والخطب و الأخبار الرائعة، وما حواه من أسماء الخطباء..."ثمّ قول ابن رشيق القيرواني "وقد استفرغ أبو عثمان الجاحظ وهو علاّمة وقته، الجهد في وضع كتابا لا يبلغ جودة ولا فضلا..."

ـ أمّا ابن خلدون فقد نقل لنا آراء العلماء القدماء في هذا الكتاب، اذ يقول عند الكلام على علم الأدب:"[1]وسمعنا من شيوخنا من مجالس التعليم أنّ أصول هذا الفنّ و أركانه أربعة دواوين :وهي كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة ،كتاب الكامل للمبرّد، كتاب البيان والتبيين للجاحظ ،وكتاب النوادر لأبي عليّ القالي، وما سوى هذه الأربعة فهي تتبع لها وفروع عنها." ، ومعناه أنّ كبار المعلّمين و الشيوخ قد أشادوا و أجملوا أصول الكتب أو إن صحّ القول أمّهاتها في الأربعة المذكورة في القول أعلاه وما عداها ليست سوى نماذج مصغرة عنها آخذة منها.[2]

4- تحقيق كتاب البين و التبيين للجاحظ:

ـ يرجع تأليف الكتاب الذي بين أيدينا إلى محمد عبد السلام هارون وكان هذا تنفيذا لوعد وعد به لزميله أيّام الدراسة محمد عبد السلام الناظر الذي تشارك معه نفقات الطبع، وقد أخرج محمد عبد السلام هارون هذا المؤلَف من دائرة الغموض إلى دائرة الإيضاح ،وذلك عن طريق فكّ اللبس الذي جال به لما شهده من تشويه و تحريف النصوص.

ـ اتكأ عبد السلام لانجاز هذا العمل على نسخة كوبرلي التي رآها سالمة من التشويه ،ليخرج لنا زبدة هذا الكتاب بحلّة معاصرة مع وضع فهارس كاشفة عن خبايا هذا المكنون الأدبي مع ضبطه بالشكل و تحقيق ما صاحبه من ألفاظ فارسية وعربية وبصرية...،كذلك عنى بالأعلام و ترجمتها و نسب الشعر لقائه، أمّا تقسيم الكتاب فقد تركه غلى حاله كما جاء به الجاحظ أيّ في ثلاثة مجلّدات.

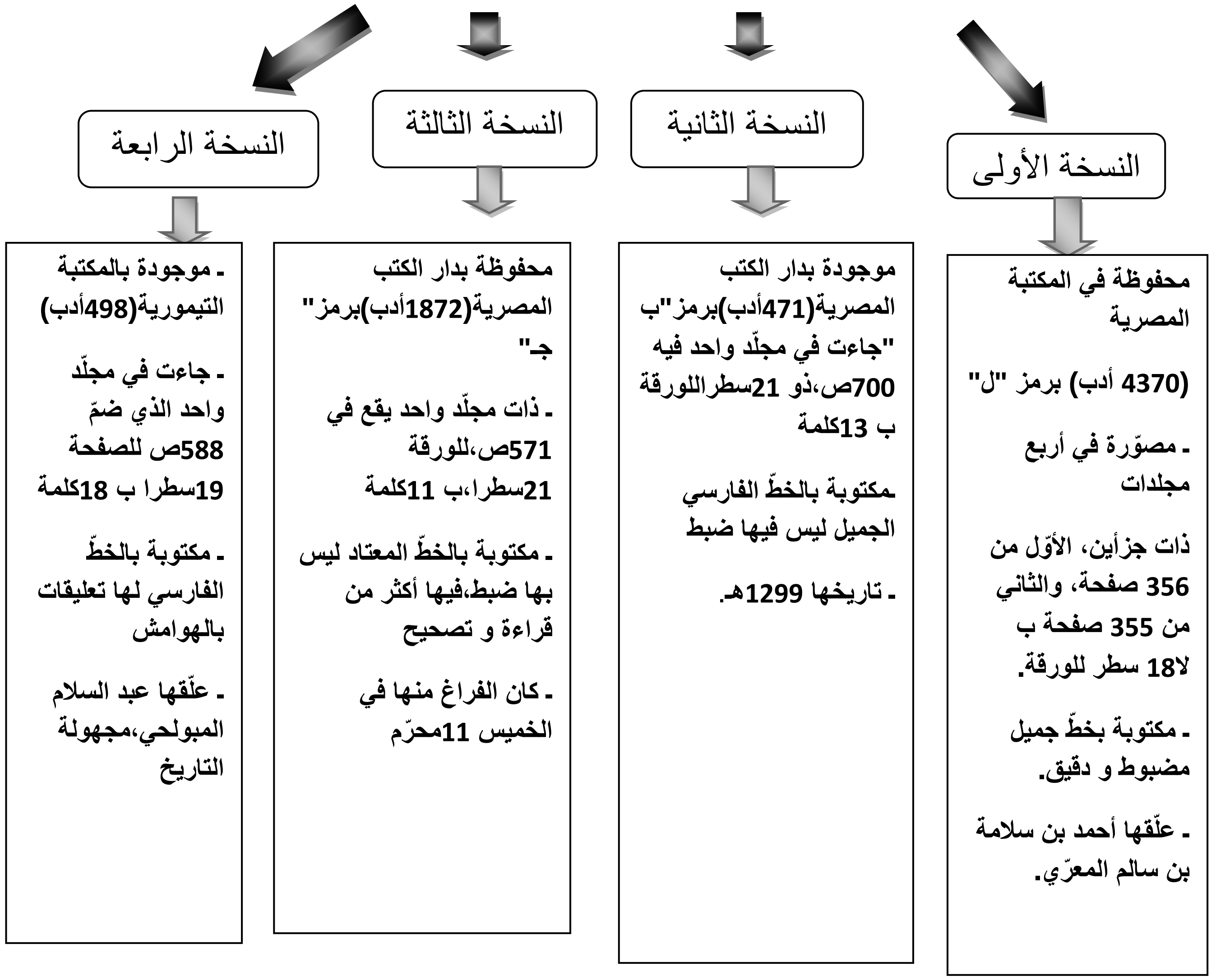
[1] -ينظر: البيان و التبيين ـ لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظـ تحقيق: محمد عبد السلام هارون ص 6
[2] -ينظر: البيان والتبيين ج 1 ـ لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ.تحقيق محمد عبد السلام هارون ص 6

5- نسخ و طبعات الكتاب:

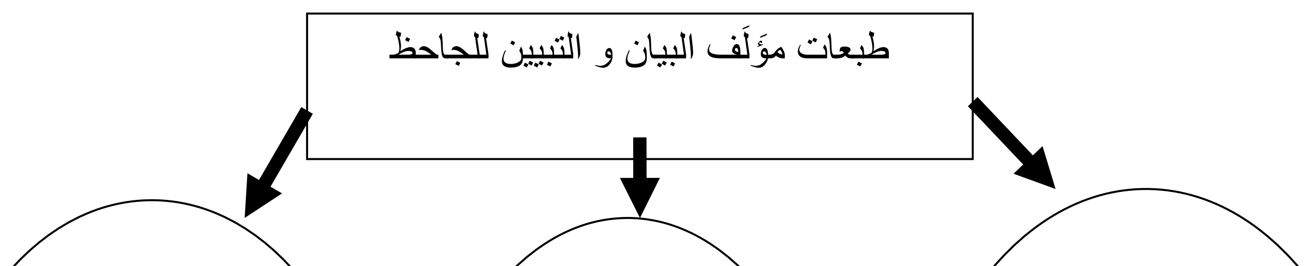
ـ نبدأها بالنسخ إذ يذكر ياقوت أنّ كتاب البيان و التبيين جاء في نسخختين ويقال أنّ الثانية هي الأصحّ ،لكن السؤال يبقى مطروحا عند معظم الأدباء هو أين النسخة الأولى و أين الثانية تلك، أمّا عبد السلام هارون فقد أشار أثناء تحقيقه للكتاب أنّه عثر على نسخة كوبرلي في أحدى معارض أصول الكتاب و اعتبرها الأجود ذلك لاحتوائها على نصوص لا توجد في غيرها، وعلى اثر هذا التوقع فانّ للكتاب نسختان وقفا على ظنّ هارون عبد السلام، الأولى كوبرلي، والثانية باقي النسخ ،لذا فقد لخّصنا كلّ نسخة في الرسم التخطيطي التالي: [1]

كتاب البيان و التبيين للجاحظ

[1] -ينظر: المـ



مخطط مستوحى من البيان و التبيين ج1- لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق محمد عبد السلام هارون ص 16-17-18



مخطط مستوحى من البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ تحقيق: هارون عبد السلام ض 16 - 18-17

ـ ها نحن قد أتينا إلى غلق باب المدخل بغية التوغّل في حقل هذه الدراسة أكثر فأكثر ،ولكن قبل ذلك لا بأس أن نعرّج على بعض النقاط المستخلصة من خلال دخولنا هذا عسى و لعلّ أن يجعل قارئ هذه الوريقات يدخل مسلّحا، واثقا، مدركا لما سيلقاه في خبايا هذا البحث فكانت النتائج كالتالي:

- ✓ احتكاك العصر العبّاسي بالأمم الأخرى نمّى من مقدورات و نشاطات المعاصرين لذاك العصر
- ✓ اختلاط الأجناس في العصر الذهبي للأمّة العربية مبرّرا لكثرة الفرق و ظهور علم الكلام ككلّ
- ✓ استفادة العرب من المنطق الذي جاءت به الفلسفة اليونانية وتوجيهه وجهة ايجابية خدمة لأفكارهم وإنتاج انتاجاتهم
- ✓ تمَثُل الأدب آنذاك بثلاث أدباء :أبو عبيدة معمّر بن المثنى، بن محمد المدائني، هشام بن محمد الكوفي .
- ✓ حلول نظام الورّاقة محلّ المكتبات حاليًا ساعد الكتابة العربية في رحلتها التنقلية من المشافهة إلى التدوين
- ✓ جاء التدوين ي العهد العبّاسي مكتظّا يشهد زخماً كمياً معظمه كان في تدوين الملاحظات البلاغية
- ✓ تعمير الجاحظ قرابة الست و السبعين عاماً مكّنه من حصد أكبر عدد من المؤلفات في جميع مناحي الحياة ما حفِظ له مكانةً مرموقةً بين علماء و أدباء عصره.

- ✓ الجاحظ بمثابة الذاكرة التي خزّنت آخر مقتطفات لعرب في الفصاحة وهذا بنقله مباشرة عليهم من سوق المربد وذا ما لم نشهده في الفترة التي جاءت بعده ربّما لأنّ زمنهم قد ولّى
- ✓ تلّقى الجاحظ دروسه على يدّ أشهر علماء العربية كالأخفش دلالة على مدى نباغة هذا الأديب و عُلوّ شأنه
- ✓ استفحال العنصر الغير العربي في بلاد العرب جعل العربي غريبا بين أهله و أرضه ما حفّز الجاحظ على المُضيّ قُدماً للدفاع عن أصله و أرضه و بالتالي اثبت وجوده
- ✓ ميلاد هذه الثمرة الجاحظية ـ البيان و التبيين ـ من جرّاء سقلها من ميادين حياتية مختلفة ـ السياسية، الاقتصادية ... ـ لخير دليل على تأثر الجاحظ بمحيطه و بيئته

ـ إذاً و بهذه النقاط نكون قد حصّلنا أو خرجنا من هذا الجزء وبين أيدينا و في أذهاننا صورة واضحة تبيّن لنا الشيء الذي نحن بصدد التطرّق له آملين من المولى التوفيق و السداد في توصيل الفهم و إبانة المعنى والقصد بلا زيادة حتى لا نكون قد بالغنا وهذا غير محبوب، ولا نقصان فنكون قد قصّرنا هذا غير مرغوب وشكراً.

الفصل الأوّل: أوّليات حول المنهج الاستطرادي

توطئة:

ـ يعرّف المنهج على أنّه الطريق البيّن الواضح الجلّي للعيان وقد أتى هذا التعريف مبسّطا أكثر في لسان العرب لابن منظور المتوفي [711 هـ ـ 1311 م],اذ قال أنّه طريق نهْجُ ُ أيّ ببّين واضح ؛ذاكراً في هذا المقام قول الشاعر أبو كبير:

فأجَزْتُه بأ فَلَّ تحْسَبُ أثرهُ ***نَهجاءُ ،أبان بذي فريغٍ مخرَفِ

وجمعها نَهَجاتٍ في المؤنث وتأتي نُهُجُ ونهُوج في المذكر ومنهَج الطريق وضَحُه, والمنهاج كالمنهج فقد ذُكِر في الآي الحكيم :(**لِكُلٍّ جَعلْنا منْكُمْ شِرْعَة ومنْهاجاً)**؛أيَ لكلَ الطريق الخاصَ الذي سيسلك؛ وأنْهَجَ الطريق اذ وضح واستبان، لول يزيد بن الحذَاق العبدي:

ولقَد أضاء لك الطَريقُ *** وأنْهَجَتْ سُبُلُ المَكَارِمِ، والهُدى تُعْدَى ؛ وانتهَجَ الطريقُ اذ صار نهجًا أيَ أصبح صالحاً للمشي فيه و عبوره وهذا كأنْ تطله أشغال التعبيد والتهيئة ؛و جاء في حديث العبَاس:[لم َيمُتْ رسوُلُ اللهِ صلَى اللهُ عليه وسلَمْ حتَى ترَكَكُمْ على طريقٍ ناهِجَةٍ]؛و النهَجُ بفتح الهاء هو تواتر النَفس من شدَة و كثرة حركتها أما عن طريق الإسراع في المشي أو الركض أو الخوف أو الانبهار وغيرها من العوامل النفسية التي تؤدي الى نهَجِها و لهَثها؛ ووردت تفيد الثوب الذي أصابه البلي و القِدَم ولم يهترئ بعد وذكره في مادة[نَهَجَ الثوبُ][1] ؛ونجد أيضاً القول النَاصح:"إ عمل على ما نهَجْتُه لك" بمعنى حفِظته وأبنته(1)

ـ وقد أتت لفظة " نهْجُ" في عدَة مواضع أُخَر منها ما هو عند الشعراء مثلاً ما جاء به ابن الرَومي وذلك في رثاء أحد العلويين ـ أحمد بن عمرو ـ الذي ثار في العهد العبَاسي واستولى على الكوفة، وقد هُزم آنذاك على يدَ ـ ابن طاهر ـ وصرعه عامَ [250هـ] وهي قصيدة تقع في اثنتي عشرة بيت مطلعها: أمَامَكَ فانْظُرْ أيُّ نَهْجَيْك تَنْهُجُ *** طرِيقانِ شَتَّى: مُستقيم‘‘ وأعْوَجُ ؛كما أنّها جاءت في كتاب ضمّ خُطب عليُّ بن أبي طالب عنوانه: "نَهْجُ

[1]- لسان العرب لابن منظور ـ تصحيح:أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيري ـج14 ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.لبنان ـ ط3 ت سنة 1419هـ ـ 1999م ص301

البلاغة" أمّا في تونس الشقيقة فيستعملون لفظة النهج للدلالة على الشارع أو الحيّ فمثلاً يقولون نهج ابن خلدون أيّ شرع ابن خلدون.

ـ أمّا من الناحية الاصطلاحية فانّ للمنهج عدّة تعريفات واردة من قبل العديد من الباحثين ففي الجذر اليوناني

Méthode،و بالفرنسيةMéthodوأمّا اللغة الانجليزية نجدMéthodos

بمعنى الطريقة؛ و أوّل هذه التعريفات التي نصطدم بها في هده النقطة تعريف السيّد البحراوي في مؤلَفه" البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث" الذي يُعرّفه على أنّه مجموعة من الخطوات مبنية على أساس لانسجام و التناسق المرافق لذاك الموضوع باشتراط عدم تناقض هذه الخطوات الإجرائية فيما بينها و فعلاً قد أصاب في هذا إذ أنّ التناقض في أيّ بحث يؤدي إلى خلل و تشويش فيه و بالتالي غياب صفة الأكاديمية والعلمية لذاك البحث مهما كان نوعه، وعليه نستطيع أن نكتفي بوصفه دراسة أو جمع لمعلومات متفرّقة لا أكثر ولا أقلّ.(1)

ـ كذلك نجده يعني الطريقة التي يتبعها الباحث لاكتشاف الحقيقة و اشباعًا لفضوله الناتج عن البحث ذاك فموضوع البحث هو العصب المحرّك لفضول الباحث ومنه يبني بحثه لبنةً لبنةً إلى الأمام ونحو التقدّم، وأيضًا هو طريقة موضوعية يتبعها الباحث من أجل التّقصي عن حقيقة ما أو دراسة ظاهرة من الظواهر ووصفها ،التعرّف عليها، مُفَسّراً ما تمّ العثور عليه من بيانات موضوعياً بغرض الوصول إلى نتيجة علمية دقيقة؛ وهو التنظيم الصحيح لسلسة من الأفكار سواء أكانت موجودة و التكلُّف بالبرهنة و إثباتها للآخر أو خلقها من العدم ومحاولة تبيانها و تعريف النّاس بها ،أمّا كونت فأرجع تعريف المنهج وربطه الجانب الاجتماعي محاولاً تحديد و ضبط أنواعه المُباح استخدامها في هذا الميدان مستدّلاً عليه بلفظة[1]Methology.

ـ ويُعرّف على أنّه إجراء يستخدم في بلوغ غاية محددة على حسب القاموس الفلسفي ويُعرّفه " **رونز**" على أنّه مجموع الطرق المعروفة لنا تُستخدم بطريقة علمية موضوعية من قبلنا لغرض تحصيل المعرفة الخاصّة بموضوع من المواضيع الحياتية، وهو علم يهتمّ

[1] -أنظر:مناهج و أدوات البحث ـ لد. عبد الله زلطة ـ كلية الآداب جامعة نبها ـ ط: 2009 ص 80 -81

بصياغة القوانين الخاصّة بموضوع ما ؛وفي وجهة نظرٍ مقاربة لكونه تنظيم الأفكار نورد تعريفاً آخر مفاده أنّه عبارة عن ترتيب صائب لجلّ العمليات العقلية القائمة على أساس إثبات حقيقة ما أو اكتشافها.[1]

[1] - المدخل إلى مناهج البحث العلمي ـ لد. محمد محمد قاسم ـ دار المعرفة الجامعية الإسكندرية مصر ط:2006 ص52

المبحث الأوّل: حول المنهج الاستطرادي و مميزاته

تمهيد:

ـ لقد اتبع علماء العربية عامة و أدبائها خاصة عدّة طرق لتدوين مؤلفاتهم التي باتت في يومنا هذا المكون الأساسي لمخزون تراثنا العربي ،فمعظمها امتاز بعدم التقعيد و لعلّ هذا ما مهّد لبروز عدة طرق ومناهج حديثة ارتكزت في أساس ظهورها على هذه المناهج القديمة فأتت هذه الأخيرة بحكم تقنين و إخضاع تلك المؤلفات للتدوين وفق الطرق القديمة الغير محكمة للتحقيق وإعادة بعثها للجمهور بحلّة منهجية محكمة مقننة وفق شروط ومعايير غاية في الدّقة و الإحكام .

ـ ولعل من أهم هذه الطرق التي تعارف عليها العديد من علماء لغتنا العربية المنهج الاستطرادي فعند تذكر هذا النوع من المناهج تلقائياً يُذكر اسم الجاحظ معه، لأنّه أوّل المتتبعين والمجسدين له ، فقد مكّنه أسلوبه الكتابي رغم تعرّضه للانتقادات واعتراضات من بلوغ ذروة الكتابة فقد فاق بهذا جلّ من سبقه وكان قدوة لمن لحقه،ربّما هذا راجع إلى (طبيعته الشعبية في الكتابة بعد أن كانت مقتصرة على أهل القصور أيّ ما جاء به ابن المقفّع وعبد الحميد وهو عبد الحميد يحيى العامري الولاء ،فارسي الأصل ،توفيّ عام 132 هـ قيل عنه :فُتِحت الرّسائل بعبد الحميد وخُتِمت بابن العميد وإن دلّ هذا على شيء إنّما هو دلّ على مدى براعة عبد الحميد الكتابية ولكنّ الجاحظ ارتقى ليصبح موازياً له ما جعله في مكانة راقية وجدّ متقدمة ويظهر أسلوبه هذا في جلّ كتاباته كالحيوان ،البيان والتبيين، البخلاء ...) [1]

ـ لهذا صار من حقنا التساؤل عن ماهية هذا المنهج، وهل نجد له تعريفا في مصنفات القدماء ثمّ هل له نفس المفهوم عند المحدثين، وهل من متتبعين له غير الجاحظ؟ هذه التساؤلات وغيرها سنجيب عنها في ثنايا هذه الدراسة بعد حين إن شاء المولى.

---

[1] - ينظر: المعجم المفصّل في الأدب ج2 ـ د ـ محمد التوينجي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .لبنان ـ ط01: 1413- - 1993م ص 604 .

1- تعريف المنـهج المتبع عند الجاحظ "الاستطرادي":

- **الاستطراد لغة :** مأخوذ من الجذر [طرد] أيّ الطّرد وطرده يطرده طرداً تفيد الذهاب **مثال:**طردت فلان فذهب ، والطريدة و الطريد من النّاس أيّ الهارب أو الخاضع للملاحقة من قبل شخصٍ ما و منه طردت الإبل إذا جمعتها بعضها لبعض بعد الرّعي للرّحيل والرّجل الطريد الذي يولد بعد ذكر ،إطّرد الماء أيّ تتابع جريانه ، وبلد طرّاد واسع ،ونجد كذلك في اللسان اطّرد أيّ تتابع، وإطّرداا لشيء إذ يتبع بعضه بعضاً.

- فمن خلال الجذور المقدّمة لنا فإن مادة طرد أفادت عدة معانٍ كالذهاب، ضمّ الإبل سيلان الماء...وما يهمنا هو كونها تفيد التتابع،التوالي التعاقب...[1]

- **أمّا من الناحية الاصطلاحية:** فهي تدّل على التتابع في الكلام وتقابلها الاستطراد يخصّ النثر و الشعر على حدّ سواء ، والاستطراد عند الجاحظ هو الانتقال من موضوع إلى آخر لتحقيق المتعة للقارئ وإبعاده عن دائرة الملل ، ويعني عند ثعلب "حُسن الخروج"**(2)**[2]أيّ عندما يكون المتكلّم بصدد الدخول في موضوع آخر مخالف لما ذكر من قبل،ويتحقق بشرط وجود رباطة بين الموضوعين وليس ذكر الموضوع عشوائياً هنا ينتج لنا فوضى في الكلام واختلال المعنى ، وقد تبعه في ذلك تلميذه إبن المعتز**(3)**[3]، وقيل أنّ أوّل من ابتدعهذا الأسلوب هو الشاعر السموأل في قوله التالي:

ونَحْنُ أُنَاسُ لا نَرى القَتْلَ سِبةُ *** إذَا مَا رَأتْهُ عَامِرُ و سلُولُ

يقرّبُ حبُّ الموتِ آجَالَنَــــــا*** وتَكْرهُهمْ آجَالُهمْ فتَطُـولُ**(4)**[4]

- فكما نرى أنّ الشاعر قد افتتح قوله الشعري هذا بأنّ القتل ليس عيباً عندهم أو هو فاجعة وسيئ لا يمكن حصوله على عكس معناه عند قبيلتي عامر و سلول اللتان تمقتانه، ليستطرد بعدها الي قضية ثانية مفادها أن الموت تحبّهم - الاعر وقبيلته - فتدنو منهم في عُجالة عن طريق القتل أمّا قبيلتي عامر و سلول فإنّه ولقلّة القتل عندهم فالسبب أنّ الموت تكرههم من

---

[1] - تهذيب اللغة - لأبي منصور محمد بن أمد الأزهري ج3 [طرد] - تحقيق أحمد عبد الحليم البروني - الدار المصرية - القاهرة مصر- ط(دت) ص 139

[2] معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها ج1 - لأحمد حمد عمربن الجبّوري - تأليف د.أحمد مطلوب - المجمع العلمي العراقي - ط:1403هـ -1983م ص 131

[3] - البديع لعبد الله بن المعتز - دار المسيرة - الإسكندرية .مصر - ط3: 1402هـ -1982م ص 60

[4] - معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها - لأحمد حمد عمر بن الجبّوري ـد. أحمد مطلوب ص 135

الأساس لذلك فهي لا تستعجل اقترابها منهم وهناك رابط بين القتل و الآجال فالقتل مُسبب لاكتمال الآجال.

ـ والسموأل هو ابن العد ياء صاحب قلعة تيماء التي عُرفت بتيماء اليهودي، وقد كُنّي بالأبلق هو شاعر جاهلي له ديوان صغير ،عُرف بالوفاء، الإخلاص والحرص على الأمانة حتى إنّه في مّرةٍ التجأ إليه إمرء القيس و أودع عنده دروعه ،فقُتل ابنه أمامه على مرئ منه ولم يُسلمهم الدروع (1)[1] ، قال المصري وأحسب أوّل من استطرد بالهجاء السموأل وهذا تأكيد لما سبق فيما يخصّ الأسلوب و خَلقِه ، أمّا الآمدي فقد اكتفى على تعليقه على بعضٍ من حسن الخروج لدى بعض الشعراء قائلاً أنّ لفظة حسن الخروج هي الاستطراد عند أقوامٍ أُخر؛ ليأتي السيوطي و يورد لنا أمثالاً من الآي الحكيم قائلاً : وقد خرجت عن الاستطراد قوله تعالى(لَنْ يَسْتَنْكِفَ المَسيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلا المَلائِكَةُ المُقَرَّبُونَ)(2)[2] أي أنّ الله تعالى في بادئ الأمر تحدث عن زعم المسيح نبوة المسيح بعدها إلى قضية زعم العرب نبوة الملائكة بوجود رابطة أنّ كليهما زعما أمراً لم يكن لهما.

ـ وهناك من يرجعه إلى لفظة الاطراد و أصلهما واحد، منهم الجورجاني الذي ربطه بمجال النسب وقال الاطراد هو ذكر نسب إنسان على التوالي أيّ بمثابة ذكراً لشجرة العائلة مستدّلاً بقول الّرسول صلى الله عليه وسلّم :[3](الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم) (3)، فهنا عليه الصلاة و السلام قد تطرّق إلى ذكر سيّدنا وسف عليه السلام ومنه ذكر نسبه ككلّ ،ونجد قول لدريد بن الصّمة:

قَتَلْنَا بِعَبْدِ اللَّهِ خَيْرُ لِدَاتِهِ *** ذُؤَابُ بْنُ إسْمَاعِيلَ بْنُ زَيْدٍ بْنُ قَارِبَ

ـ وقيل أنّ عبد الملك بن مروان لمّا سِمع هذا البيت قال: "لولا القافية لبلغ به آدم" ومعناه أنّ دريداً تحدث عن قتلهم لعبد الله ليستطرد إلى ذكر سلالته و أصله، أمّا عبد الملك فقد استهزأ بهذا الاطراد مبرّراً أنّه ولولا توجب القافية لكان الشاعر أكمل السلالة وما انقطع أبداً إلى غاية الوصول إلى أصل البشرية آدم.

[1] - المعجم المفصّل في الأدب ج1 د. محمد التو ينجي ص 530

[2] - معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها- أحمد حمد عمر بن الجبّوري - تأليف أحمد مطلوب ص 135

[3] - البلاغة الاصطلاحية - لعبده عبد العزيز فلقيلة - دار الفكر العربي - القاهرة. مصر ط3: 1412هـ - 1992 ص 335

ـ ونجده يعني في نطاق آخر "سَوْق الكلام على وجه يلزم منه كلام آخر"(1)[1]وأنّ الاستطراد لا يكون مخططاً له إنّما يكون عرضياً وعادة ا يكون له غايات مثال أنّه يأتي إمّا لتوضيح قضية أولى أو إضافة فكرة جديدة لها أو لإتمامها أو لنقدها أو الوقوف على قضية ما يقصد لكاتب الوقوف عليها ،كما أُعتبر محسّن بديعي معنوي .

ـ ورد تحت لفظة التفريع عند ابن رشيق القيرواني في كتابه العمدة المقصود به هنا هو أن يكون الشاعر في وصف شيء ما ثمّ يفّرع منه وصفا آخر يزيد الموصوف تكيدا ذاكرا في هذا قول الكمّيت :

أحْلامُهُمْ لَسِقَامُ الجَهْلِشَافِيَةً ***كَمَا دِمَائُكُمْ يُشْفَى بِهَا الكَلْبُ

ـ فهنا قد باشر الشاعر بوصف أحلام مهجوّه ليتعدّاه بأن فرّع عن هذه الصفة صفة أذّم كأن طعنهم في كون دمائهم تصلح لدنيء الخلق منهم وهذه كناية عن رداءة النسب ، ويذكر لنا في موضع مماثل قول ابن المعتز:

كَلاَمُهُ أخْدَعُ مِنْلَحْظِهِ***وَوَعْدُهُ أكْذَبُ مِنْ طَيْفِهِ

ـ فكما نرى أنّ ابن المعتّز(2)[2]وبينما هو في صدد وصف خدع كلامه فرّع عنه خدع لحظه أيّ وقته أو زمانه وبينما يصف كذب وعده في الشطر الثاني فّرع عنه كذب طيفه دلالة على النكوث بالوعد وهكذا توالت أمثلة التقريع في كتاب ابن رشيق لعدة شعراء أمثال البحتري ابن الرّومي، ابن العبّاس, ..الخ

ـ هذا ولم يكتفي ابن رشيق بتعريف الاستطراد(1)[3] بلفظة التفريع إّما تجاوز هذا إلى تقسيمه إلى أنواع :"استطراد من مدح إلى ذمّ وهو ما سلف التعرّض له مع أمثلة ابن المعتز الكمّيت و استطراد من ذمٍ إلى مدح مثال قول زهير بن أبي سلمى :

إنَّ البَخِيلَ مَلُوُمٌ حَيْثُ كَانَ *** وَلَكِنَّ الجَوَاَد عَلَى عِلاَّتِهِ هَرِمُ

ـ فنرى هنا أنّ أبا سلمى قد هجا مهجوه في الشطر الأوّل

[1] -المعجم المفصل في الأدب ج1 ـ د.محمدالتو ينجي ص86
[2] - العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده ج2 ـ لأبي العيّ الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي ـ تحقيق محمد محي الدّين الحميد ـ دار الجيل ـ بيروت. لبنان ط5: 1401هـ -1981م ص 39-41
[1] -العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ـ لإبن رشيق القيرواني ص 44

فوصفه بالبخل ليعود ويصفه بالفراسة والمعروف عنها الجود ، الشجاعة، الأصالة لكنّه جمع بين متناقذين في بيت واحد ، استطراد الإدماج :ومعناه إدماج قضية في قضية دون وجود قطيعة بينهما مع ميزة التتبع بالطبع، وقد آتانابن رشيق بالمثال التالي أنّه حكى أنّ أحمد بن يوسف الكاتب دخل على المأمون وفي يده كتاب من عمرو بن مسعدة يورد فيه النظر فقال "لعلّك في ترديدي هذا الكتاب ،قال :نعم يا أمير المؤمنين، إنّي عجبت من بلاغته واحتياله لمراده[كتبت كتابي إلى أمير المؤمنين أعزّه الله ومن قبلي من قوّاده وأجناده في الطاعة والانقياد عل أحسن ما يكون عليه طاعة الجند تأخرت أرزاقهم واختلت أحوالهم]ألا ترى يا أحمد إدماجه المسألة في الإخبار و إعفائه لسلطانه من الإكثار!؟ ثمّ أمر برزق ثمانية أشهر وهذا الكلام أقلّ في الكلام من الاستطراد المتعارف عليه وأغرب."(2)[1]

ـ ومعنى هذا القول أنّ الخليفة العبّاسي المأمون كان يعيد قراءة رسالة وصلته من ابن مسعدة وكيف لأحمد بن يوسف استغرب هذا التصرف أي كيف قرأ تلك الرسالة مرارا و تكرارا ولم يمل منه وظلّ يعيد الكرّة، ليجيبه لمأمون شارحا له استغرابه ذاك وهذا بحجّة أنّه أعجب ببلاغة عمر حيث زاوج وأدمج قضيتين في رسالته الأولى قضية مدح وشكر الخليفة والثانية الدخول في الحديث عن أجور التي تأخرت عنهم مدّة ثمانية أشهر، فهذا استطراد الإدماج ولأبأس إن ذكرنا بعض أمثلة الاستطرادي المستوحاة من مؤلف القيرواني محاولين شرحها إن أمكن ، بدءاً بقول جرير:

لمَّا وَضَعْتُ عَلَى الفَرَزْدَقِ مَيْسَمِي ***وَضَغَا البَعِيثُ جَدَعْتُ أنْفَ الأخْطَلِ

ـ فهجا في هذا البت شخصا واحدا ~الفرزدق~ ليستطرد بالاثنين البعيث والأخطل، ومن جيّد الاستطرادات أيضاً قول دعبل بن عليّ الخزامي ويروي لبشّار بن برد :

خَلِيلِ مِنْ كَلْبِأعِينَا أخَاكُمَا *** عَلَى دَهْرِهِ إنَّ الكَرِيمَ مُعِينُ

وَلاَ تَبْخَلاَ بُخْل اِبْنَ فَزَاعَةٍ،إنَّهُ*** مَخَافَةَ أنْ يُ◌ُرْجَى نِدَاهُ حَزِينُ

ـ فنرى هنا كيف أنّ دعبل دعا خليله ـ صديقه ـ أن يعينا أخاهما لمواجهة الزمان وصعوبته ليستطرد للحديث عن بخل ابن فزعة وهو رجل أُشتُهِر بالبخل وكلّ هذا بوجود رابطة بين الموضوعين أيّ البخل، ودعبل هذا هو دعبل بن عليّ بن زرّين الخزاعي شاعر

[2] - أنظر: المصدر نفسه ص 39 -40

من قحطان اسمه الحقيقي الحسن ،عبد الرحمن ،محمد ، والدعبل هو البعير المُسِن وسمي هكذا لأنّه علا به السن وُلد في الكوفة و نشأ فيها توفي سنة المائة و الستة والأربعين**(1)**[1]

وذكر لنا قول البحتري حين أنشد أبي تمّام:

وَسَابِحُ هَطْلِ التّعْدَاءِ هَتّانُ *** عَلَى الجِرَاءِ أمِينُ غَيْر خَــــوَّانُ[2]

أظْمَى الفُصُوصَ وَمَا تُظْمَى قَوَائِمُه *** فَحْلُ عَيْنَاكَ ظَمْآنُ رِيّانُ

فَلَوْتَرَاهُ مَشِيخاً و الحَصَى زَيْمُ *** تَحْتَ السَّنَابِكِ مِنْ مَثْنَى وَوِحْدَانُ

ـ فقال له أتدري ما هذا من الشعر؟ قال لا أدري ،قال **"الاستطراد أو المستطرد "**فكما نلاحظ أنّ الشاعر قد استهل كلامه بمدح فَرَسِه بالأمانة والحِراسة، سريع الرّكض، يستطرد إلى التعرّض لصورته المستقبلية حين سيعلو به السّن وتنهار قِواه والربطة هنا ـ الخيل**(2)**

ـ أمّا أبو هلال العسكري فيتعرض للاستطراد في مؤَلَفه ـ الصناعتين ـ إذ يقول فيه هو أن يرى الشاعر أنّه في وصف شيء و إنّما يريد غيره، فإن انقطع أو رجع إلى ما كان لديه فذلك استطراد وإن تمادى فذلك خروج[3] **(3)**، إذاً فأبو الهلال يعرّفه على أنّه الدخول في عدّة قضايا شريطة العودة إلى ما سلف ذكره و إتمامه فإن تعذّروصول هذا فهو خروج، ولا أعني هنا الخروج الحسن لأنّه من أسماء الاستطراد إنّما الخروج الغير محدد و القائم بقطيعة تامة مع القضية الأولى لكنّ طريقة الجاحظ الاستطرادية وعلى الرّغم من أنّها لم تنبني وفق أسس ومنهجية مُحكمة إلاّ إنّه يتضح لك من خلال مؤلفه معالجته للميادين العامّة التي لا بدّ حضورها في المجــــال البياني خاصّة المتعلّقة بالجماهير، الخطابة، الجدال، كما تّطرق للغة وعلاقة الألفاظ بالمعنى وصفات الكلام المبين وما يتخلله من وضوح، إيجاز، إطناب...وهكذا نجد الجاحظ يعالج من الموضوعات الأدبية المتصّلة بنظمه ونقده لكنّه يتكلّم بشكل عام خالٍ من التحليل الدقيق للموضوع ذاته، ولعلّ هذا الذي أضاع الثمرة المرتجاة من إمام البلاغة العربية لعُسر وصعوبة الفهم من قبل المتلقيّ إضافة إلى أسلوبه الذي ينتقل فيه من جدّ الكلام إلى هزله وهذا ما سنعرضه لاحقاً إن شاء الله، وكلّ هذه المعارضات أتت مختصرة في القول التالي لأبي هلال العسكري في كتابه الضخم ـ

[1] - أنظر:موسوعة أمراء الشعر العربي د.عبّاس صادق دار أسامة ـ عمّان .الأردن ـ ط1:سنة2002ص 188

[2] - العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ج2 ـ إبن رشيق القيرواني ص42

[3] - الصناعتين لأبي الهلال العسكري ـ تحقيق عليّ محمد البجاوي ومحمد أو لفضل إبراهيم ـ المكتبة الوقفية ـ ط1: 1371هـ -1952م ص 234

الصناعتين ـ حين تحدث عن البيان و التبيين قائلاً: "كانت الإبانة عن حدود البلاغة[1] وأقسام البيان و الفصاحة مبثوثة في تصانيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالّة بين الأمثلة لا توجد إلاّ بالتأمّل الطويل، والتصفّح الكثير..."(1)

ـ فالعسكري يقرّ بأنّ كتاب البيان والتبيين مختلط المواضيع ليس من السهل العثور أو التعرّف على قضية البيان أو الفصاحة إلاّ عن طريق القراءة المطوّلة والمتعددة ولعلّ هذا كلّه من مخلفات استطرادات الجاحظ الكثيرة.

ـ ومع كلّ هذه التناقضات فإنّ العرب لم يخطئوا لمّا عدّوه مؤسس البيان العربي، فبرغم كلّ هذا أصبح للبيان و التبيين قيمة لا توصف، نهرُ جاري غرفت منه عدة دراسات معاصرة ولكنّه لم ولن يجّف أبدا، لأنّ الجاحظ قد رحل عنّا تاركاً وراءه روحاً في مؤلَفه تنبض بالحياة كلّما لامستها أيدٍ بشرية.

2ـ مميّزات الأسلوب الاستطرادي عند الجاحظ:

ـ كما نعلم جميعاً أنّ لكلّ منهجٍ أو طريق عُرِف سواء قديماً أو حديثًا خصوصيات تميّزه عن غيره وتجعل الذهن البشري يفرّق بين ذا المنهج و ذاك كي تتضح الخريطة المفهومية لديه ـ القارئ،السامع،الباحث ـ لمختلف المناهج المتعارف عليها، وعليه يصبح سهلاً تحديد أيَّ طريق ستسلك وأيّها ستتبع، وإن كان السموأل مُنشِئ لهذا الطريق فالجاحظ هو الذي عبّده وجعله صالحاً للمُشاة رغم قلّتهم لعدم اقتناعهم به ولابتعاد صفة العلمية عنه، لكن هذا لم يمنعه من اتصافه ببعض المميّزات التي لم توجد في غيره، وأنا بدوري ومن وجهة نظرنا الخاصة نعتبرها أوصافاً منطقية وثرية، لا توجد إلاّ فيه، وعليه فما أحببنا إلاّ أن نستخلصها من مفهومنا الخاص واستنادا للدراسات السابقة وتطبيقها على كتاب البيان والتبيين، فكانت ثمرة هذا الجهد المميّزات التالية:

---

[1] -ينظر:أبو الهلال العسكري و مقاييسه البلاغية والنقدية ـ د.بدوي طباني ـ دار الثقافة ـ ط3: 1401هـ ـ 1981م ص52

1-2 اتسامه بالأسلوب القَصَصي:

ـ فقد عمد الجاحظ من خلال منهجه المتبع إلى الأسلوب الحكائي في العديد من مؤلفاته عامّة والبيان خاصة، ولم يكتفي بالسرد الممِّل المجرَّد فحسب إنّما تعداه ليوفر لها النبض والحياة الخفّة، العذوبة المستساغة خصوصاً ذلك أنّ النّفس البشرية على العموم متعلقة[1] (1) بالفنّ القصصي الحكائي أكثر من الإخباري، ولعلّ أبرز ما يؤكد جزمنا هذا استعماله للألفاظ التالية("أنشدني، حدّثني..."فمن طبيعتها أنّها دائماً سبق الحكاية، القصّة، الرواية، تكون إمّا مسموعة أو منقولة).

ـ ولعلّ أبرز الأمثلة التي تثبت هذا الكلام كلّه ما عثرنا عليه في الجزء الأوّل لهذا الكتاب فعسى ولعلّ أن يتضح بها الفهم خاصة لدى الذين لديهم شك حيال منطقية و جدارة هذا الاهتمام بالتعرّف عليه، وأوّلها كان حين تطرق إلى قومٍ يحسنون القول و يسيئون الفعل قال أبو حفص أنشدني الأصمعي للمكعبر الضبِّي:

كُسَالَى إذَا لاقَيْتَهُمْ غَيْرَ مَنْطِقٍ*** يُلَهَّى بِهِا لمَحْرُوبُ وَهُو عَنَاءِ[2]

ـ كما أنّ الجاحظ أورد لنا حكاية جرت بين أبو حفص و الأصمعي حول قول صدر عن للمكعبر ، كذلك حين روى لنا قصّة واصل بن العطاء مع مشكلته(1) النطقية أنّه ألثغ فاحش اللّثغ وكيف أنّه تحدّ مشكلته هذه بغية الوصول إلى حلّ، فالقصة هنا حوت جميع عناصر القصّة الحديثة(بداية ،العُقدة، النهاية أيّحلّ العُقدة) فالبداية على حسب هذا لتحديد تكوّنت لمّا علِم واصلُ ً أنّه ألثغ وأنّ له نقصًا لاكتمال صورة الكلام عنده، وأتى هذا مُجسَداً في قول الجاحظ: "ولمّا علِمَ واصل بن عطاء أنّه ألثغ فاحش اللّثغ ،وأنّ مخرج ذلك شنيعو أنّه داعية مقالة، ورئيس نحلة، وأنّه يرد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء المِلل وأنّه لابدّ له من مقارعة الأبطال..."ومعنى هذا أنّ واصلا ًلم يكن يعطي لمشكلته أهمية كبيرة وكانت عادية جدًّا بالنسبة له إلى حين أدركه الاعتزال فكان لابدّ عليه من مجادلة الفرق الأخرى ولا يكون إلاّ بلسان فصيحٍ مبين ؛و بالرجوع إلى تحديد عناصر القصّة الآن العُقدة فتكمن حين أدرك اصل خوض هذا الجدال إلاّ إذا كان سليم النطق مالك البيان، وتتضحّ هذه

[1] -ينظر:الجاحظ دائرة معارف عصره ـ د.فوزي عطوي ص 103-104

[1]- ينظر: البيان والتبيين ج1- لأبي عثمان عمر بن محبوب الجاحظ ـ تحقيق:د.عليّ أبو ملحم ـ دار مكتبة الهلال ـ بيروت.لبنان ـ ط2: 1412هـ ـ 1992م ص37

النقطة من خلال قول الجاحظ:"...**أنّ البيان يحتاج إلى تمييز و سياسة وإلى ترتيب ورياضة[...]وعلِم واصل أنّه ليس معه ما ينوب عن التّام واللسان المتمكن..."** وبلوغ العقدة ذروتها لمّا كانت مشكلته النطقية باباً مفتوحاً على مصرعيه لدخول الهجاء حياته و ذاته من قبل العديد من الشعراء المعاصرين له أمثال بشّار بن بُرد الذي قال فيه:

مالي أشايع غزّالاً لَهُ عنُقُ *** كنَقْنَقِ الدُوِّ إنْ وَلَّى وَإنْ مَثُلاَ؛ فيحتدم الصراع وتزداد القصّة تشويقاً بين واصل و بشّار وآخرين ممن انهالوا عليه مستخدمين طال عنقه و مشكلته النطقية أداةً للهجاء لتتواصل القصّة مسيرتها التطوّرية.

ـ كذلك حين عرض علينا قصّة الكُميّت و الطِّرماح وكيف أنّهما إختلفا في كلّ شيء أهمّها الانتساب فواحد شيعي والآخر صفري، لكن و بالرّغم من هذا الاختلاف الذي كان سيفاً أراق الدماء آنذاك فإنَّ هذين الرجلين تحديا هذه الصعوبة ليرسما لحياتيهما طريقاً معاكسً للعداوة و الخصام فكان طريق المشاركة والمصاحبة؛ وهذا بالضبط ما تمّ ذكره من قبل الجاحظ(1)[1]وللإشارة فقط فإنّ فالطِّرماح هو شاعر عبّاسي اسمه الحقيقي أمان بن الصمصامة غير الطِّرماح بن الحكيم ،والطِّرماح بلغة طيئ :الحيّة الطويلة وفي اللسان جاء بمعنى الرّفع رأسه افتخارا أو زهواً ؛وبالإضافة يسرد لنا قصّة مشابهة لهذه القصة وهي قصّة خالد بن صفوان و شبيب بن شيبة وغيرها.[2](2)

ـ ونجده في نطاق آخر يسرد لنا قصة أبو دبوبة الزنجي وهو من مولى آل زياد وما كان يفعله عند محلّ المكّارين الذين يعيرون الحمير للنّاس مقابل المال طبعاً ،فان يتوجه إلى هناك و يقلد صوت الحمير كي تتبعه و بالتالي يحصل عليها دون الدفع؛ وذكر أيضا قصّة أبو شمر وهذا عند تطرّقه لمفهوم البلاغة عند سهل ابن هارون لنا وقفة معه لاحقًا مظهر ذا الرّجل وكيف أنّه لا يحرِّك يديه ولا يقلب عينيه وهو يخطب إذ أنه دائم التركيز فيما قاله وفي ما سيقوله من اجل تحقيق الفهم للسامع، و نلاحظ كيف أن وصف الجاحظ الدقيق يساعد في إعطاء السامع و القارئ صورة تحليلية عن هذا الرجل " بشر "كأنه ميت لا يبدي الحراك أبدا. إذ يورد أسلوب هذا الرّجل في إلقاء الخطب وضمّ كلّ هذا في قالب حكائي بحت ولا يكتفي الجاحظ بالسرد الجافّ الممِّل بل ينعشه بنوع من الوصف ،إذ وهو بصدد

[1] - ينظر : البيان والتبيين ج1 ـ لأبي عثمان عمر بن محبوب الجاحظ ـ تحقيق:عليّ أبو ملحم ص 59
[2] - المعجم المفصل في الأدب ج2 ـ د.محمد التوينجي ص603

ألحكي يصف لنا ـ لتكتمل صورة أسلوبه القصصي مع باب جاء فيه " تراجم البلغاء " فهنا يقص علينا عدة قصص لحياة شخصيات بلاغية مختلفة : إياس بن معاوية ، الحسن بن سهل، ابن السماك جعفر بن يحي ، شيب بن شيبة ، ثمامة بن أشرس[1].

2-2 الابتعاد عن التكلف في الصياغة :

ـ ولعل أهم ما يميز الاستطراد عند الجاحظ هو عدم التكلف في الصياغة ، فالمؤلف حين يكون بصدد تتبع هذا الطريق فانه يشهد تضاربا لأفكاره المخزنة و ثقافاته المحصلة فهو لا يدري متى ستأتي فرصة ذكر هذه القضية دون أخرى ، وحين يحين وقتها يكون الوقت اقصر بكثير ، هنا لا يتوفر الوقت الكافي لصياغتها و إعادة بعثها، لأنها ولوج الفكرة كان بصفة مفاجئة طبقا لطبيعة القضية الأولى ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى نرى أنّ أباعثمان قد ارتقى بالكتابة وتأثر بعبد الحميد و ابن المقفع ، فقد جمع محاسنهما و زاد عليها خفة الروح وجمال العرض، واجتمعت مميزات عدة منها أنه كان سهل العبارة كأنما جمع له الكلام، يختار منه ما يشاء ، وقد كان يميل إلى تقطيع العبارة و جعلها جملا قصيرة متعادلة و بكثير من الجمل المترادفة إقرارا للمعنى في النفوس.[2]

- و من أمثلة هذه الميزة و ما يوضحها أكثر هو الدعاء الذي افتتح به الجاحظ كتابه فلو أحصيناه و فحصناه جيدا لوجدناه ذو ألفاظ سهلة ، بسيطة تحمل معان واضحة، يستطيع أن يفهمها حتى من ليس له صلة بالأدب العربي ، وكان كثير ما يدخله أي الدعاء حشوا في جل عباراته[3].

- وفي موضع آخر عند ذكره لقصة **سيدنا موسى عليه السلام**، كذلك مثال آخر حين تحدث عن **النبي صلى الله عليه و سلم** ، فنجد أن عباراته كلها الموظفة هنا سهلة ومفهومة وفي تطرقه لفرعون و كيف أن الله عز و جل أخبرنا عن طبيعة فرعون المحبة للهلاك والفساد في الأرض، منبها إيانا بتجنب طريق الكافر الظالم ، فقد اتجه الجاحظ في هذه المقولة نحو البساطة ، وفضلها، والملاحظ فيها " المقولة " أنها حوت على سجع لكن هذا لم يدفع بابي عثمان إلى سلك طريق التعقيد والمبالغة، والمقولة هذه عي كالتالي (وأنبأنا الله

[3] - ينظر: البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون . ص 45

[1] - ينظر : الجاحظ الأديب الفيلسوف للشيخ كامل محمد محمد عويضة – دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 01 1413 هـ – 1993 م ص 08 .

[2] - ينظر : تاريخ آداب العرب ج2– جورجي زيدان ص 311

تبارك و تعالى عن تعلق فرعون بكل سبب، واستراحته إلى كل شغب بذلك على مذهب كل جاحد معاند و كل محتال مكايد).[1]

- وهناك سلسلة من الأمثلة في هذا النطاق ، فمنها مثلا لما ذكر لنا استخفاف ناس بألفاظ وتفضيلهم لأخرى قد تكون الأولى أكثر أحقية لهذا التفضيل مستدلا بما جاء في القران الكريم ، فمثلا لفظة الجوع لم تأتي في القران إلا و قد اقترنت إما بالعقاب أو بالفقر، أما الناس فنجدهم يستخدمونها حتى في حالة السلامة و القدرة .

- و تأمل معنى القول التالي: "والحساب يشتمل على معان كثيرة و منافع جليلة، ولو معرفة العباد لمعنى الحساب في الدنيا لما فهموا عن الله عز و جل معنى الحساب في الآخرة " فكما نلاحظ أن الجاحظ يعرفنا بماهية الحساب و مدى أهميته بالنسبة للإنسان، وخاصة.2 المسلم، وانه لو لا وجوده في الحياة قبل الأخر، لما استطاع الناس إدراكه في الآخر، فقد قتلنا الشك باليقين مرة أخرى لملاحظتنا البساطة، الوضوح، فكان تعريفا سهل الفهم مقتضب الكلمات، بين الدلالة.

- ليواصل طرقه هذا آتيا على سبيل المثال بوصفه لهارون بن هارون حيث وبالرغم من تضمين مقولته هنا صورا و صفية عديدة إلى انه لم يبتعد عن الوضوح غير أن طبيعته هذه تقتضي عكس ذلك ، فالمعروف عن الوصف، الحشر، و تخيل بعض الأوصاف والمبالغة في وصف الموصوف، لكن أبا عثمان حذا حذواً مغايرا ويبدو أن البساطة كانت مطبوعة فيه على السجية .

- و مما يدل على ما سلف ذكره قوله لمّا ذكر لنا جهارة الصوت والتشديق في الخطب حيث عالج لنا في هذا القول كيف إن الآية انقلبت فيما يخص علاء الصوت إذ مدحوا قديما علي الصوت ، و نموا بذلك البطيء الصوت و لم يتوقفوا عند هذا الحد بل تجاوزوه إلى حد أنه مدحوا ليرى حجم الفم و ذموا صغره ، ظنا منهم أن هذا الأخير أو حجمه أن صح القول هو المتحكم في نوعية الصوت ، وهذا بطبيعة الحال لحكم يعيد تمام البعد عن المنطق والصواب ، فحجم الفم لا دخل له أبدا في التحكم في مدى الصوت الخارج، فكان بهذا حكما ذاتيا أكثر مما هو موضوعي ، لكن بالرجوع إلى نقطتنا

---

[3] -البيان والتبيين ج1 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق:هارون عبد السلام ص 41

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ . تحقيق هارون عبد السلام 85 و 92

الأساسية فإن الجاحظ لم يتكلف في صياغة هذه المقولة كغيرها من المقولات المذكورة آنفا ، وفي نفس الوقت يبرز لنا دوره كمعارض لمبدأ التكلف، والتصنع في صياغة الكلام و لعل المتصفح لكتابه سيدرك هذا الأمر عن كثب، إذ انه لا يفوت فرصة إلا ويذكر فيها قولا أو أمثلة تنفي المبالغة و ذلك لشدة حرصه على تحقيق ثنائية الفهم والإفهام[1].

- و جاء في إطار ما قالوا فيه من الحديث الحسن الموجز المحذوف القليل الفضول فهو يحدثنا عن الأسجاع خاصة التي عرفت عند الجاهلية و اقصد بهذا سجع **الكهان** و هو عبارة عن طائفة تدعي أنها على الاطلاع،[2]بالغيب وأموره وعارفة بما يأتي به الغد وأغلبيتهم كانوا يخدمون الأصنام و تزعم أن توابعها من الجن، والكهان جمع كاهن وبيوتها و من أهم و وظائفهم لجوء العرب إليهم في معرفة أمورهم، يستشرون في الأمور السياسية والحربية ، وأصلهم من مناطق نائية من اليمن ، أما فيما يخص كلمة سجع فذلك لان الناس كانوا يقصدونهم و يسألونهم فيجيبونها دوما سجعا، بألفاظ مبهمة كثيرا ما يؤله السامع لوحده وعلى حسب مفهومه الخاص ومن أبرزهم **المأمور الحارثي عري سلمة** حيث قال فيه الجاحظ " أكهن العرب و أسجعهم سلمة بن أبي حية " ومن قوله المسجوع " الأرض و السماء العقاب والصقاء وواقعة ببقاء... " وهناك كاهنات أيضا أمثال: الشعثاء، السعدية الزرقاء ، الزيراء ...[3].

- إذا فكثرة استعمالهم السجع و لّد لديهم ميزة التكلّف ، لذلك فإنّ قارئ القصائد التي جاءت في تلك الحقبة يتعذّر عليه الفهم و الاستيعاب لذاك الكلام و تميّزه بالغموض[4]**.**

- و في نهاية هذه النقطة ما نملك إلا أن نقول أن كتاب أتى حاملا في جعبته تراثا هائلا جمع عدة مناحي ، ثقافات مختلفة و العجب و رغم هذا الثراء إلا أن الجاحظ صاغه في حلة بسيطة سهلة التداول بألفاظ و عبارات واضحة وضوح الشمس، لا بل في الكثير

---

[2] - ينظر: المصدر نفسه ص212

[1] -المعجم المفضل في الأدب العربي ج2: - د – محمد التوينجي ص 521 .

[2] -المعجم المفصّل في الأدب ج1 - لد. محمد التوينجي ص521

[3] - ينظر: البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – محمد عبد السلام هارون ص 241

من الأحيان إن لم نقل كلها عمد إلى تفسير و إيضاح العديد من الأمور أو ألفاظ المبهمة الغريبة في النطق الثقيلة في السمع ، المستعصية في الفهم ، و هذا ما سيأتي ذكره لاحقا من قبلنا ، على العموم فقد صدق الجاحظ حين قال :

"خير الكلام و أجوده ما كان قليله يغنيك عن كثيره ."(3)

فكلما قل كلامك قل ملامك وزاد الناس إقبالا على إنتاجك الكلامي ذاك مهما كان نوعه و مهما اختلف مجال إلقائه.

2- 3 وضع اللفظ على قدر المعنى:

- لقد دعا الجاحظ إلى الموازاة بين اللفظ أي الكلام و المقصود، و بهذا أصبح الجاحظ هنا القاعدة التي ارتكز عليها الذين أتوا من بعده ، و جعلوه أساسا يعتمدون عليه في تفضيل الشكل و الصياغة على المعاني[1].

- **إذ يقول الجاحظ "** قال بعض جهابذة الألفاظ و نقاد المعاني، المعاني القائمة في صدور الناس المتصورة في أذهانهم مستورة خفية ، وإنما يحي تلك المعاني أخبارهم عنها واستعمالهم إياها وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، و تجعل الخفي منها ظاهرا والبعيد قريبا ... وعلى قدر وضوح الدلالة يكون إظهار المعنى ، و كلما كانت الدلالة أوضح و أفصح ، كان أنفع و أنجع " ، فاصل المعاني السترة في القلوب و لا يترجمها أو يظهرها إلى التعبير عنها ما نقصد هنا الألفاظ ، فتتضح حينئذ و تخرج للعيان وتستولي على فهم الأذهان بعدما كانت مدفونة بين القلوب ، و ليس هذا فحسب بل يتقدم الجاحظ خطوة أخرى ليؤكد على أن اختيار اللفظ المعنى دون زيادة أو نقصان و نجد في هذا النطاق قوله : " أحسن الكلام ما كان من قليله يغنيك عن كثيره و معناه في ظاهر لفظه ... و إن دل هذا على شيء إنما يدل على ملائمة و توازي اللفظ للمعنى ، كما يؤكد جزمنا عدة أمثلة ذكرت في مؤلفه القيم " البيان و التبيين ج 1 " .[2](2)

[1]- المدخل لمصادر الدراسات الأدبية و اللغوية و المعجمية القديمة و الحديثة / إعداد الأستاذ حامد صادق قنيبي ومحمد عريف الجرباوي / دار الجوري / الأردن عمان ط 01 [1425 ه – 2005 م] ص 142

[2] - المختصر في تاريخ البلاغة – د – عبد القادر حسين ص 87 – 88

*** التمثيل لأهم مظاهر توازي الألفاظ للمعاني في " البيان و التبيين "**

ما ذكره فيما يخص تعرضه لعيوب البيان بدا بالعي إذ يقول :

أن صاحب التشديق و التقعير والتقعيب من الخطباء و البلغاء مع سماحة التكلف ،وشنعة التزيد ...، فكما نلاحظ و لو تناولنا جملة (سماحة التكلف) فسنلاحظ هنا تأكيدا وإثباتا على اعتقادنا السابق إذ أن الجاحظ وازن المعنى باللفظ ، فالمعنى الذي أراد بلوغه في هذه الجملة هو زرع الملل و السأم الناتج عن التكلف هو " [1]فكما يقال إذا زاد الشيء عن حده انقلب.إلى ضده، كذالك شان الكلام إذ بالغ صاحبه وتصنّع يصبح محلا عييًّا، فأتى بلفظة " سماحة " التي ترجمت المعنى المكنون في القلب وغيرت عنه دون زيادة أو نقصان**.**

- ونفس الملاحظة إذ ما تناولنا جملة [شنعة التزيد] **(1)**، كما ترى أن الجاحظ استعمل لفظة **تشنع** و لم يستعمل **أقبح** لأنه أراد بلوغ المعنى ، فلو اختار الثانية لكان المعنى المقصود قد انطفأ لان الجاحظ هنا يرى في التزيد درجة متقدمة من القبح و القبح لفظة اقل درجة من تشنع ، قد يكون قبيحا لكن في جوانب مستحسنة ،أما التشيع وهو بلوغ القبح ذروته دون وجود أي صفات مستحسنة ، لهذا استعمل **تشنع** دون غيرها لتصوير مدى شناعة التزيد الذي يقصد به التصنع ، فكلما زاد التصنع في الكلام شوه الكلام بأكمله ، وافسد صورته وبالتالي اختل معناه ما يؤدي به إلى حد الشناعة ، حيث لا احد من السامعين يستظرفه أو يفهمه .

- و لنزيد الأمر أكثر وضوحا و هذه النقطة أكثر إتماما و تحليا في الأذهان لاباس إذ أخذنا مثلا آخر يقوي جزمنا السالف ، فكان المثال الظاهر في العبارة أو الجملة التالية [المسهب الثرثار] ، فلقد استخدم الجاحظ لفظة **المسهب و** المسهب مأخوذة من الإسهاب وهو الإطالة في الكلام لا يتطلبها المعنى ، فهو لهذا فضول و زيادة عن الحاجة وهو عكس الإطناب الذي يعني الإطالة في الكلام، يتطلبها المعنى لغرض التأكيد أو التأثير كما اعتبر القدماء الإطناب بلاغة و الإسهاب عي ، وقد تحدث عنه الجاحظ في مؤلفه هذا ودعا لنقيضه الذي هو الإيجاز ، لكن المهم هنا هو تعرفنا للفظة **المسهب** قد انتقاها الجاحظ موازاة للمعنى المرجو التعبير عنه و ملائمته و قد نجح في هذا ، لأن المعنى الذي قصده

[1] - أنظر: البيان و التبيين ج1 : لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ – تحقيق علي ابو ملحم ص 35

هو الثرثرة كذلك كانت الثرثرة كلام طويل دون نتيجة أو غرض محدد فاستعمل لفظة المسهب دون مثلا الطويل لان كل مسهب ثرثار و ليس كل طويل ثرثار لأن الإطناب طويل لكنه ثرثارا لهذا وظف المسهب و كانت موفقا لحد بعيد ،وهذا إن دل على شيء إنما يدل على قدرة تحكمه في اللغة و مدى إبداعه، فبالرغم من استطراداته الكثيرة و هي لم تنسيه[1] أو تلهيه عن جودة الصياغة و السبك ولك أن تتخيل مدى ثقافته و غزارته اللغوية الأدبية ووجدنا أيضا مثلا غاية في الدقة والإبداع ورمزا على نبوغ هذا العالم البلاغي إن صح القول آلا و هو:[وان ذلك من أكثر ما تستمال به القلوب ، و تثنى به الأعناق وتزين به المعاني] **(1)،** فإذا ما أخذنا الشطر الأوّل من هذه العبارة **تستمال به القلوب** فنجد الجاحظ هنا قد اختار لفظة **تستمال** وهذا لان الاستمالة من فعل القلوب و قد أصاب في موازاة اللفظة للمعنى المقصود ، فقد قصد من معنى " الجزالة " كذلك أن الجزالة أو الكلام الجزل الموجز قريب إلي القلوب ، فكثيرا ما نجد أن كلمة واحدة معبر قد تخدش شعور القلوب وتحركها ، بينما كثيرا ما نصادف نصوصا و سطورا محملة بالكلام لكن دون ملامسة للقلوب و الوصول إليها ويحضرنا في هذا القول الكلمة إذا خرجت من القلب و صلت الأذان و إن خرجت من اللسان لم تتجاوزه ، وإذا ما تناولنا الشطر الثاني [تثني به الأعناق] نجد أنها صورة جميلة جدا فهي كتابة عن الاحترام و التقدير فالإنسان المعروف بجزالة كلامه ينال احترام و تكون له قيمة ومكانة بين جمهوره المتلقي أي المستمعين، لان هذا ينم عن حكمة و مدى عبقرية و دهاء هذا المتكلم فجاء بلفظة [تثني] ولم يأتي بلفظة تنحني لان اللفظة الأولى لها حمولة دلالية أكبر ملائمة مع المعنى الذي يدور في فكرة، أما عن الشطر الأخير [تزين بع المعاني] فأتى الجاحظ بلفظة [تزين] بدل تجمل لان الزينة أقرب إلى مقصود الجاحظ هنا إذ أنه يعتبر الجزالة هي زينة المعاني وما الجمال الا مكون من زينة بالزينة يكون الجمال و يولد لهذا انتقى هذه اللفظة بالذات دون غيرها .[2](2)

[1] - البيان و التبيين ج1: لابي عثمان عمرو بحر محبوب الجاحظ – تحقيق علي ابو ملحم ص 35 .
[2] - ينظر: المصدر نفسه ص 36-.37

ـ ويصادفنا مثال : **"و أنّ حاجة المنطق إلى الحلاوة و الغلاوة ، كحاجته إلى الجزالة والفخامة"؛** فنرى أن أبو عثمان ذكر الألفاظ : الحلاوة ،الجزالة ، الفخامة ، وهي ألفاظ تلاءمت و توازنت مع معنى المنطق فلم يزد و لم ينقص في ذلك شيئا.

ـ وأيضا نعثر على قوله [تشادق الأعرابي القح] فاستخدم الجاحظ لفظة [تشادق] بدل تكلف وهذا لتصوير المعنى و المكنون و المرجو من قبله ، وهذا لان التشادق أكثر من التكلف فكيف إن كان من أعرابي قح ، و المعروف عن الأعرابي أنه ذو لسان فصيح وكلام مبين ومقصود واضح ، فان كثف معانيه و ألفاظه صح و صفه بالتشادق أقرب من تكلف .

2- 4 الإيضاح و التبيين في القصد :

ـ ونعتبر هذه النقطة لتحصيل حاصل للنقاط السابقة المتمثلة في الابتعاد عن التكلف والموازن بين اللفظ والمعنى[1] فالابتعاد عن التكلف يؤدي بالضرورة إلى تركب جمل قصيرة سهلة بسيطة و بالتالي معنى و مقصد واضح و جلي في نفس القارئ **(1)** سواءا إن كان ذو اختصاص أدبي أو لا ، و قد حوت جل مؤلفات الجاحظ على العموم والبيان والتبيين على وجه الخصوص طابع الإيضاح و التبيان ، و لعل عنوان مؤلفه هنا لخير دليل على هذا الجزم فأعطاه اسم " البيان و التبيين " فبالرغم من انه صيغ بأسلوب استطرادي مع ألفاظ و عبارات دالة وواضحة إلاّ أنّه " الجاحظ " عالج عدة قضايا متعلقة بالبيان وهذا من خلال تعرضه لذكر عدة مشاكل من شانها تعكير صفو البيان و هذه المشاكل هنا كانت نطقية بحتة .

ـ هذا من جهة أما من جهة أخرى فمن أهم مظاهر الإيضاح و التبيين في القصد، أنّ الجاحظ في كتابه هذا لم يتوقف عما سلف ذكره بل تعداه إلى توضيح عدة أقوال ذكرها وتبيان القصد منها ، مع شرح المفردات أو الألفاظ الغريبة الصعبة إن وجدت فقط لتصفو مرآة البيان و يتضح مقصود اللسان.

[1] - الجاحظ الأديب الفيلسوف : للشيخ كامل محمد محمد عويضة ص 8 .

- **التمثيل لبعض مظاهر الإيضاح و التبيين في القصد عند الجاحظ :**

ـ مثلا ماجاء ذكره في **ما قيل في المخاصر و العصي و غيرها** ، حيث قال **:** كانت العرب تخطب بالمخاصر و تعتمد على الأرض بالقيّ ، وتشير بالعصي و القنا نعم حتى كانت المخاصر لا تفارق أيدي الملوك في مجالسها لذلك قال الشاعر :

فِي كُنْهَ خَيْزُرَانْ رِيحُهُ عَبِقُ **** بِكَفِّ أَرْوَعُ فِي عِرْنِنَيْهِ شَمَمَ[1] **(1)**

ـ فكما نلاحظ أن الجاحظ لم يكتفي فقط بذكر تلك المقولة فحسب بل تجاوزها ليبينها ويثبتها وهذا كله من خلال استشهاده بذاك البيت الشعري ، ويواصل أمثلة في هذا ويواصل ليزيد فقط الأمر وضوحا فهما أكثر**.**

ـ ونجد مثالا أيضا و هذا ماذكره في **سبب تسمية بعض الشعراء** إذ ينقل لنا القول التالي: " ومن الشعراء من يغلب شيء قاله في شعره ، على اسمه و كنيته ، فيسمى به بشر كثير ..." ثم يعود الجاحظ في هذا المقام و يبين لنا من المقصود بهذا القول فيقول "...ومنهم عوف بن حفص بن حذيفة بن بور ، غلب عليه عويف القوافي "، و لنزيد نقطنا إثباتا ما أتى به لاحقا أن يوضح لنا في هذه المحطة قول هذا الشاعر الذي كان مبدأ تسميته هذه فكان بذكر قوله:

سَأُكَذِّبُ مَنْ قَدْ كَانَ يَزْعَمُ أَنَّنِي **** إِذَا قُلْتَ شَيْئًا لَا أُجِيُد القَوَافِيَا .

ـ و يستمر الجاحظ تبايناته التي لا تنتهي و هذا بذكر عدة أسماء لشعراء عدة مع تسمياتهم و ما يكنون به إلى جانب الإتيان بالبرهان الدال على ذاك القول أو الحكم .[2] **(2)**

ـ و في موضع **اللفظ الغريب ليس فصيحا** تلقى مرادنا قد تحقق و أصبح ظاهرا لمن كان مبهما له ، و هذا في الخطوة التي خطاها الجاحظ للتبيان و الإيضاح في القصد و هذه المرة عن طريق شرح بعض الألفاظ العربية الغريبة ، فهو هنا لم يتركها مبهمة غامضة في معناها بالنسبة للمتلقي و إنما ذكرها إضافة إلى تبيان مقصودها ومقالها الفصيح ومثال هذا قوله : [رأيت الناس يتداولن رسالة يحي بن يعمر على لسان يزيد بن المهلب " أنا لقينا العدو فقتلنا طائفة و أسرنا طائفة ، ولحقنى طائفة بعراعر الأودية و اهضام الغيظان، وبتنا بعرعرة الجبل ، و بات العدو بحضيضة ...]

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1 / لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق د. عليّ أبو ملحم ص295
[2] - ينظر: المصدر نفسه ص 298

ـ فالقارئ لهذه الرسالة لا شك انه سيستعصي عليه الفهم و هذا لعدم إدراكه معنى بعض الألفاظ و هي : اهضام ، الغيظان ، عراعر ... لهذا فان الجاحظ ذكر لنا القول ليورد لنا مباشرة بعده المقابل الفصيح لهذه الكلمات الغريبة فكانت كالتالي:1.(1)

عراعر الأودية = اسافلها - عراعر الجبل = أعاليها - أهضام = مداخلها ، الغيطان "ج" غائط و هو الحائط ذو الشجر .

ـ وقوله كذلك : قال أبو الحسن : "كان غلام يقعر في كلامه ، فأتى أبا الأسود الدؤلي يلتمس ما عنده فقال له أبو الأسود ما فعل أبوك ؟ قال : " أخذته الحمى وضنختهوفنخته فنخا، و فضخته فضخا ، فتركته فرخا" ليشرح و يوضح لنا الجاحظ فيما لي هذه المقولة القصد من غرابة تلك الألفاظ و هي :

فَنَخَتْهُ = أضْعَفَتْهُ ، و الفنيخ هو الرّخو الضعيف دَقَتْهُ ، ثم بعدها يكمل لنا المقولة هذه : فقال أبو الأسود : فما فعلت امرأته التي كانت قهارة وتشارة ، وتجارة وتزاره ؟ قال طلقها فتزوجت غيره فرضيت وحضيت وبظيت ويتعرض كذلك لشرح بعض الألفاظ منها : تزاره أيّ تعَاضُّه والزِّرُ من العضِّ، حَظِيَتْ ومعناها من الحظوة، بظِيَتْ وهي إتباع لحَظِيَتْ[2].(2)

ـ ونلتمس وضوح هذه الفكرة في قول آخر نقله لنا أبو عثمان فكان قو له أبو يعقوب الأعور:

وَخَلَجَةُ ظَنٍّ يَسْبِقُ الطَّرَفَ حَزْمُهَا **** **تَشِيفُ** عَلَى غَنَمٍ وَ تَمْكُثُ مِنْ دَخْلِ
صَدَعَتْ بِهَا و القَوْمُ فَوْضَى كَأَنَّهُمْ **** **بُكَارَةَ مِرْبَاعٍ** تُبَصْبِصُ لِلْفَحْلِ

ـ للإشارة فان الألفاظ المكتوبة بلون مغاير هي الألفاظ الغريبة التي أتانا الجاحظ و مقابلها في اللفظ الفصيح فكان : الخِلْجَة = وأي جذبة الظن، كأنه يجذب صواب الرأي جذبا، و**الخِلْج** معناه الجذب، تَشِيفُ = تُشرِفُ، بكَارَة مِرْباَعْ = أي نوق فتايا قد أذلت للفحل، والمِرْبَاع = نوق رئيس، والمِرْبَاع = يعني كذلك ربع الغنيمة في الجاهلية لصاحب الجيش

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1 : لآبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق علي ابو ملحم ص - 302
[2] - المصدر نفسه ص 300 .

و ليس هذا فقط إنما الجاحظ زاد هذا الشرح إيضاحا أكثر و ذلك حين نقل لنا قول شعري جرى فيه ذكر كلمة المرباع فقال : قال ابن عمة :[1].(1)

لكَ المِرْبَاعُ مِنْها و الصَّحَايَا **** و حُكْمُكَ و النَّشِيطَةُ و الفُضُولُ

ـ وما ذكرنا ليس سوى نقطة في بحر من الأمثلة الدالة الإيضاح و التبيان وإن المتتبع لهذا المؤلف سيلتمس صحة هذا الاعتقاد لان الجاحظ و رغم طبيعته الفلسفية الا أن هذا لم ينفى أو يدفن روحه الأدبية البسيطة السهلة ، التي تميل إلى قلة الكلام مع كثرة الإفهام.

.2- 5 الطريقة الجدلية:

ـ إن أهم ما ميز المنهج الاستطرادي عند الجاحظ هو الطريفة الجدلية التي عرف بها ، فكما نعلم أنه منتسب لفرقة المعتزلة و هي فرقة كلامية قامت على نهج و أسس فلسفية بحتة ، وهذا من دون شك سبب اتسام استطراداته بالجدل ، إضافة إلى أن الجاحظ نشأ وكبر و فتح عينيه و غذى عقله من تداخل عدة ثقافات أي في العصر العباسي ومما لا ريب فيه أنه عصر احتدام النقاشات و الانقسامات الثقافية والعرقية والعقائدية بين المسلمين، و انشطارهم إلى شيع ، خوارج ، مسلم ، مسيحي ، يهودي ، مجوسي ... والاختلاف مولد الجدل بالضرورة .[2](2)

ـ والمتعارف عليه أن للجدل طريقة فلسفية تبدأ بعرض الموقف الاول ، ثم الدفاع عنه بالحجج و البراهين ، وآخر نقطة هي نقد و ذكر سلبياته ، ثم عرض الموقف الثاني المتولد عن ذاك النقد وعرضه عن طريق تدعيمه بأقوال وبراهين من الواقع ، ثم في نهاية المطاف نقده كذلك وصولا إلى التركيب بين الموقفين إما عن طريق تجاوز الرأيين أو التوفيق بينهما ، أو إظهار موقف ثالث جديد أو نظرية .

ـ أما عند الجاحظ كما سلف الذكر فقد صدفنا العديد من المواقف الجدلية مع عرضها بكل مراحلها ، لكن للإشارة فان الجاحظ قلما كان يوفق بين الموقفين إنما كان يتجاوزهما وهذا ما سنوضحه فيما يلي .

---

[1] - البيان و التبيين ج1 : لآبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق علي أبو ملحم ص 302 –303 .
[2] -تاريخ النقد عند العرب من العصر الجاهلي الى القرن الرابع هجري للأستاذ طه أحمد إبراهيم ص 09 – 10 .

- **التمثيل لورود الطريقة الجدلية في استطرادات الجاحظ من خلال[البيان و التبيين ج 1]**

ـ لعل خير مثال مجسد لنا طريقة الجاحظ الجدلية ماذكره في أثر **الأسنان في البيان** فهنا الجاحظ يبدأ الموقف الأول بكون أن للأسنان اثر على البيان ، فالبيان يشوه إن فقدت الأسنان و يصبح غير تام وقد أتى بعدة براهين تؤكد هذا مثلا نقله لنا لقول سها بن هارون : " لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف و تكميل آلة البيان لما نزع ثناياه ، ليؤكد هذا الموقف و يزيده إثباتا و هذا بقوله : خلا دين يزيد الأرقط خطب الجمحي خطبة نكاح أصاب فيها معاني في الكلام و كان في كلامه صغير يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن علي بن الحسين بكلام في جودة كلامه ، إلا انه فضله بحسن المخرج و السلامة من الصغير فذكر عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر لخط سلامة لفظ زيد لسلامة أسنانه فقال في كلمة له : قلت قوادحها وتم عديدها فله بذلك مزية لا تنكر[1].

ـ و يواصل موقفه هذا بعدة أقوال و أمثلة من الواقع إلى أن يتولد له موقف ثان الا وهو الأصح سقوط الأسنان ، فبسقوطها يصلح البيان و يصبح أوضح ، و قد أكد هذا الموقف بعدة أقوال منها : قال **محمد بن عمرو الرومي(2)**[2]مولى أمير المؤمنين " قد صحت التجربة وقامت العبرة على أن سقوط جميع الأسنان أصلح في الإبانة عن الحروف، منه إذا سقط أكثر و خالف أحد شطريها الشطر الأخر .

ـ و ليزيد موقفه أكثر رساخة وإثباتا ، فان أبا عثمان هنا يواصل دربه الجدلي وذلك بتداوله عدة أقوال دعمت موقفه القائم هنا ، واصلا بهذا إلى نقطة الإتيان و ذكر لأسماء أناس سقطت جميع أسنانهم و كانوا فصيحي الكلام وواضحي البيان و نفى بقولنا هذا أمثال: **الوليد بن هشام القحذمي** ، صاحب الأخبار ، أبو سفيان بن العلاء بن لبيد التغلبي وكان ذا بيان كذلك قوله: "وكان عبيد الله بن أبي غسان ظريفا يصرف لسانه كيف شاء ...الأسنان

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1 : لابن عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق د – علي أبو ملحم ص 69.
[2] - ينظر: المصدر نفسه ص 70 و72 و 74.

ـ ليغلق هذا المرة بذكر قول أهل التجربة التي تقر بقاء اللسان فصيح رغم سقوط الأسنان ـ أما عن نهاية موقفه الجدلي فقد اختار و فضل الجاحظ تجاوز الرأيين وترك القضيتين أو الموقفين على حالها دون إيراد موقف آخر أو التوفيق بينهما .

6-2 شد القارئ :

ـ و يكون هذا بإدراج عدة روايات أو حكايات ثم تركها مفتوحة للمرور إلى قضية أخرى هذا ما يبرر لنا ما يسمى عند المعاصرين بعنصر التشريق فالقارئ يجذب بهذه الطريقة إلى متابعة القراءة بغرض الوصول أو الاصطدام لاحقا بالقضية التي سلف للجاحظ تناولها وعدم إكمالها ، فالفضول دافع قوي في هذه الحالة لاستمرار القراءة و بالتالي كشف عدة قضايا أخرى و قصص و حكايا قبل الوصول إلى القضية المراد البحث عنها ، إذ إن القارئ يجد نفسه مضطرا و بطريقة عفوية و تلقائية للتطلع على هذه القضايا المعترض طريق الجاحظ الاستطرادي

ـ التمثيل لمظاهر ورود نقاط شد القارئ في استطراداته من خلال البيان والتبيين:

ـ أول و ابرز مثال ارتأينا أخذه لتأكيد اعتقادنا السالف هو لما ذكرنا الجاحظ بقصة وو**اصل عطاء هذا ألمعتزلي**[1]أدرج ذكره هذا في صنف **العي** ليورد لنا أهم صفاته بعدها يدخل على إثرها في قصة سيدنا موسى مع أخيه هارون، كذلك ذكر صفات النبيين ليدخل في بعض أقوال شعراء الرسول عليه الصلاة و السلام ، ثم يعود إلى قصة سيدنا موسى عليه السلام، وواصلها بقصة أخرى هنا كانت **لثغة العراء** مع **محمد بن شبيب**[2]مع عرض بعض لأقواله دلالة على حالته هذه ، ليعود في نهاية المطاف إلى قصة واصل بن عطاء ولثغة.

- ومن خلال هذا المثال المتناول يتضح لنا إن القارئ قد تابع و اطلع على جميع هذه القصص فقط ليصل إلى إتمام و معرفة مسار قصته الأولى التي طالعها ألا و هي " قصة واصل مع لثغة " ، إذا من هنا نستنتج إن الجاحظ أو إن صح القول استطراداته كانت نقطة لجذب القارئ و جعله متفطنا نشيط الفكر لمتابعة المطالعة و بنفس شغوفة ، دون ملل أو سأم من جراء هذا لان و كما سلف الذكر فالجاحظ له طريقتين في إبعاد الملل و الضجر.

[1] -البيان و التبيين ج1 : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق د - علي أبو ملحم ص 36-37
[2] - ينظر: المضدر نفسه ص 69

ـ كذلك يظهر لنا من خلال ما جاء به في **اثر الأسنان في البيان** ، إذ يبتدئها بمقولة هي نقطة لجذب القارئ فكأنها لغز ، لان القارئ لما يقرا هذه العبارة يتولد عنده فضول يجعله(2) مشدودا و يدفعه لمتابعة القراءة بغية أو أملا في حصوله على جواب أو إيضاح لفضوله ذلك القائم على أساس : لماذا الزنوج ينزعون ثناياهم ؟[1]، ليمر القارئ في عدة قصص قبل نيل مراده منها قصص لمن فقدوا أسنانهم كذلك أهم الأقوال في فاقد الأسنان وعلاقتها بالبيان و الإفصاح ، ليجد القارئ بغيته المنشودة في الأخير التي تشرح له وتجاوبه على سؤاله الأسبق ، وهذا حين ذكر لنا الجاحظ قصته مع الزنجي " الفاشكار " بالتحديد لما سأله عن سبب نزع ثناياهم فأجابه و كان الجواب مضمنا ضمن قول الجاحظ التالي: فقلت له : لم تنزع الزنج ثناياهم ؟ ولم يحدد ناس منهم أسنانهم ؟ فقال : أما أصحاب التحديد فللقتال و النهش ، و لأنهم يأكلون لحوم الناس ، ومتى حارب ملك ملكا فأخذه أسيرا أو قتيلا أكله ، و كذلك إذا قاتل بعضهم بعضا أكل الغالب منهم المغلوب .

ـ وأمّا أصحاب القلع فإنهم قالوا : نظرنا إلى مقادم أفواه الغنم فكرهنا إن تشبه مقادم أفواهنا مقادم أفواه الغنم، فكم تظنهم – أكرمك الله - فقدوا من المنافع العظام بفقد تلك الثنايا.

ـ و نلتقي بما ذكره في**بشر بن المعتمر يقنن أصول البلاغة**.[2](1)

ـ إذ أن الجاحظ يشرع بسرد قصة " بشر " مع " إبراهيم بن جبلة بن مخزمة التكوني الخطيب " و بينما هو مار عليه و إبراهيم بعلم الفتيان إذ وقف **بشر** فظنه **إبراهيم** أنه يريد الاستماع و الاستفادة مما يقول ، لكنه يتضح فيما بعد عكس تخمين **إبراهيم** و هذا حين يقول **بشر** للأولاد دعكم من كلامه هذا و رمى إليهم الصحيفة من تمحيصه وردت فيها تقنين

[2] – البيان و التبيين ج1لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: علي أبو ملحم ص 69
[1] - ص 71 و 128.

للبلاغة و بعد نهاية سرد الجاحظ لنا ما جاء فيها ، ينقل لنا حالة إبراهيم بعد سماعها ، حيث قال لبشر أنا أحوج إليها من الفتيان ، و هنا تأتي أو تكمن نقطة جذبه للقارئ إذ يترك القصة متوقفة مؤقتا عند هذا الحد ، إي إبراهيم بن جبلة و قوله ذاك

لبشر ، و يدخلنا في راية الخاص ، إذا فالقارئ يجد نفسه و بطريقة مفاجئة مضطرا إلى متابعة القراءة حتى و إن أبى ، و هذا فقط ليسد حاجة فضوله السائلة عن بقية قصة بشر مع إبراهيم و إلى أي حال آلت .

- 7-2- عدم تحميل حملة بالمحسنات:

- كما سبق الذكر إن الجاحظ لامس جدار البساطة ليصل إلى باب البيان والإفصاح وهذا كله بإتباع عدة مميزات صاحبت استطراداته الظاهرة في مؤلفة **" البيان والتبيين "** من أهمها الابتعاد عن التكلف في الصياغة موازاة اللفظ بالمعنى، الإيضاح في القصد ... كل هذه العناصر هي عناصر مانعة من ظهور المحسنات في جمل وعبارات الجاحظ بالرغم من طولها ، وهذه الميزة نستطيع إن نقول أنها تماشت مع **" البيان والتبيين "** من بدايته إلى نهايته.[1] **(2)**

- التمثيل لولوج جمل دون المحسنات في استطراداته :

- و خير دليل على ما سلف وهذا في موضع طبقات الكلام " **ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك إن تحكيها إلا مع أعرابها ومخارج ألفاظها فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها و أخرجتها مخارج كلام [2]المولدين والبلديين....استملاحهم لها"(1)** فالجاحظ هنا يدعو إلى نقل الأقوال و الشواهد كما وردت على. .أصلها الحقيقي وفي لغتها الأم و ينهى عن التغيير فيها لأن هذا قد ينحرف بها جهة الخطأ و اللحن سواء في المعنى أو على المستوى النطقي، وكما نلاحظ و بالرغم من طول هذه المقولة إلا أن الجاحظ لم يستخدم و لو محسن بديعي واحد

كذلك نلمس هذا في قوله: "ثم اعلم أن أقبح اللحن لحن أصحاب التقعير والتعقيب ... الأسواق ".

---

[2] -المدخل لمصادر الدراسات الأدبية و اللغوية و المعجمية القديمة و الحديثة . حامد صادق قتيبي و محمد عريف الحرباوي .ص26

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1- لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق د - علي أبو ملحم ص 136

ـ ونجد أيضا ما جاء به في الفصاحة و اللحن حيث قال : " و العتابي حين زعم إن كل من أوهمك حاجته فهو بليغ ، فلم يعن إن كل من افهمنا من معاشر المولدين والبلديين قصده و معناه ... كان صحيحا " ، هذا و كما اشرنا آنفا أن هذا المؤلف شهد عدة عبارات بعيدة تماما عن استخدام المحسنات فيها و توظيفها و لهذا فقط تناولنا بعضا منها فحسب وهذا تعذرا لكثرتها .

8-2 التزاوج بين الجمل و الإتيان بالسجع عفو الخاطر :

- فكثيرا ما كان الجاحظ يورد عباراته و جمله متزاوجة أي التركيب بين عدة جمل في عبارة واحدة و لرّبما يرجع إلى أسلوبه في الكتابة الذي أهم ما ميزه هو استخدامه لجمل قصيرة و بما أنها قصيرة فلا بد إن ترد عدة جمل متزاوجة فيما بينها ، و لعل هذا ما أكسب طريقته الكتابية صفة البيان و الإيضاح دون إكثار الكلام وزيادة التعقيد .

ـ التمثيل للتزاوج بين الجمل:

ـ و أول هذه الأمثلة قوله حين عرف البيان قائلا : " و البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى حتى يفضي السامع إلى حقيقه ، و يهجم على محصوله ، كاثنا ماكان ذلك البيان "[1] ـ و أيضا نجد قوله[2]" لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، و ممتدة إلى غير نهاية"

ـ و نواصل الأمثلة المذكورة فنلتقي بقول الجاحظ : " و لكل واحد من هذه الخمسة صورة واضحة من صورة صاحبتها و حلية مخالفة لحلية أختها ..."

ـ و المقصود بالخمسة هنا " أي العناصر الخمس للبيان على حسب ماحددها الجاحظ وبينها في كتابه هذا و يصرح في قوله آنفا أن لكل عنصر ميزة و خصائص مختلفة بالضرورة عما سبقها : كما نلتقي بصورة أخرى تبرز لنا هذه الميزة الخاصة بالأسلوب الاستطرادي عامة و الجاحظ على وجه الخصوص حين ذكر لنا اللفظ والإشارة و كيف أنهما شريكان متشابهان ، فلا اللفظ يستقيم أو يفهم بدون إشارة و العكس صحيح ، فكل منها متمم يتمم به الآخر ، و هذا صحيح لان في بعض الأحاسيس خاصة عندما نصطدم بذوي الاحتياجات الخاصة أي اقصد الصم البكم ، فهذه الفئة لا تعرف للفظ سبيلا

[1] – البيان والتبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن محبوب الجاحظ ـ تحقيق:علي أبو ملحم ص 147
[2]- المضدر نفسه ص 82

ولا لفهمه تحصيلا لهذا فان الإشارة هنا تحل محل النائب إن لم نقل المساعد الأجدر للفظ و لو لا وجود التكملة بالفطرة لكانت الفئة المذكورة كمثال مهمشة اجتماعيا ، و لهذا نجد الجاحظ يرجع وظيفة الإشارة علاوة على المساعد في الفهم أنها أداة ترجمة و لعل هذا ما وضّحناه من خلال المثال إذا ونجد هذا الشرح مبلور وواضح في قوله التالي " و الإشارة و اللفظ شريكان و نعم المؤن هي له ، و نعم الترجمان عنه " فكما نرى رغم تزاوجه وجمعه بين ثلاث جمل إلا إن هذا لم يمنعه من توظيف السجع بين الجملة الثانية و الثالثة كما هو واضح أكيد و بطبيعة الحال سجع عفوي ، دون قصد منه .

ـ كذلك لما تعرض لفرعون و هذا مذكور سالفا ، فنجد في القول الذي سندرجه بعد حين أن الجاحظ جمع بين أربعة جمل و كلها مرتبطة سجعيا و إن دل هذا على شيء إنما يدل عن الطبيعة الشعرية لرّبما المطبوعة فيه ، فالجاحظ كما نعلم كانت لديه تجربة في الشعر، إذا القول هو " **وأنبأنا الله تبارك و تعالى عن تعلق فرعون بكل سبب ، واستراحته لكل شعب و نهينا بذلك على مذهب كل جاحد معاند ، و كل محتال مكايد ...**" أيضا في قوله: " خلاف المسهب الثرثار[1] والخطل المكثار "**(1)** ففي هذا القول جمع بين جملتين كحد أقصى ونحيطك علما أنه يتحدث عن صفات المتكلم ، المخاطب الذي سيهب في الكلام مع خلطه لبعض الأمور والتكثير منها ، وكل هذا بطبيعة الحال يؤدي إلى ضياع معنى هذا الإنتاج وتعذر وصوله إلى الجهة الأخرى – السامع – أو القارئ –

ـ كما نعثر في نطاق آخر على نفس الميزة و نرسخها في كتابة أبو عثمان وهذا حين دعا إلى الموازنة و التعديل في صياغة الكلام أو لفظة ، أو عامي بل لا بد له أن يلامس البساطة و الوضوح و يثني الجاحظ من خلال هذا الحكم و القول فئة يمكنها أن تتبع هذا الطريق أو أن صح القول كلاهما الأصلي له نفس الميزات و هي فئة البدو أو الأعراب ففي هذا القول قد أدرج أربعة جمل كحد أقصى قابلة للزيادة لأننا فقط تناولنا جزء من القول لكنه المهم جمعها ، الجمل الأربع برابطة بديعية تمثلت في السجع العرضي

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق د - علي أبو ملحم ص 31-36

"التلقائي " فكان القول : " **وكما لا ينبغي اللفظ عاميا و ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا ...**"1

ـ و هكذا فإن قارئ هذا الكنز الأدبي لا يحس بالملل و الإكراه أو حاجة نفسه للترويح، لان الجاحظ قد نوع طرق كتابية ، فهذا يجعل القارئ و ذهنيته نشطا على الدوام، وتارة يدخل جملا هزلية تنعش النفس البشرية و تجعلها – القراءة - خفيفة الظل وتارة يقحم أسجاعه البسيطة السهلة الواضحة لتطرب نفسية قارئه و تبهجها ، لهذا قلت عليه آنفا كنز، أن لم يكن قليل في حقه ، و هذا جزء فقط من تراثنا العربي الزاخر بهذه النوعية من الكتابات التي حتى و أن كانت لا تخضع لأحكام و قواعد منهجية إلا أنها كانت غاية في الإبداع ، على خلاف ما بتنا نشهده اليوم و بالرغم من توافر المناهج وخضوع الكتابة لعدة قواعد إلا أن المردود الكتابي ارتمى في حضن السطحية و لا جدية الكتابة .

9-2 الخلط بين الجد و الهزل [2]

ـ بداية فان الهزل ككل مأخوذ أو مندرج تحت فن السخرية ، و الجاحظ عموما عرف بروحه الخفيفة الطريفة إذ أنه كثيرا ما كان يمزج بين متناقدين **الهزل و الجد** مازاد أو ما دلّ على قدرة تحكمه في رصيده اللغوي الأدبي ، و أنما لإشارة قاطعة على نبوغه و حدة ذكائه، وعليه فان الجاحظ اشتهر بهذا الفن السخرية **(1)**، و هذا في مؤلفات عدة له أهمها " البخلاء ، الحيوان ، رسالة التربيع و التدوير" ، أما فيما يخص " البيان والتبيين " فبالرغم من أن طبيعة الموضوع لا تسمح بضم المزاج إلى ثناياه ، إلا أن أبا عثمان خطى هذه الخطوة هنا ، ما جعل مؤلفه غاية في الإبداع و الصياغة و الطرافة حتى و أن كانت قليلة .

ـ إذا و بما أننا سبق و تعرفنا " لفن السخرية " فلا باس أن ندرج تعريفه كالتالي بغية طرد الغموض والإبهام عن ذهنية قارئ صفحاتنا هذه ، فالسخرية في اللغة مأخوذة من مادة سخر و منه يسخر سخرة سخرا بمعنى هزئ و لا يجوز أن نقول كما أقو الفراء " سخرت

[1] - ينظر فن السخرية في ادب الجاحظ من خلال كتاب التربيع و التدوير ، البخلاء ، الحيوان ، رابح العوبي ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية . بن عكنون الجزائر ص 5 .

[2] - ينظر: البيان و التبيين ج 1 لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق علي ابو ملحم ص 135

به بل الأصح قول سخرت منه و من ذلك قوله عز و جل " **فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ**" التوبة [89] ، كذلك يأتي منها السداسي على استسخر و هي كما قال **الرماني** يدعون بعضهم بعضا للسخرية من احدهم و نجدها تعني التكليف سخر تسخير كلفة أمرا لا يريده[1]أو بمعنى الإذلال ، لقوله عز و جل " **وسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَ القَمَرَ** " أي أذللهما ، و تفيد الفاعة و هذا من خلال المثال : " سخرت السفينة " أي أطاعت و جرت فطاب لها المشي ، و السخرية أو الفكاهة نفس الشيء فإنسان فكه أي طيب النفس والمزاج فكانت بدايات ظهورها عند كل من الرومان ، المصريين الإغريق أي الحضارات القديمة وكان هذا عن طريق تجسيد السخرية على شكل رسومات على الحائط أو الجدران الكهوف، وبعدها شاعت الكتابة فيها و تطورت أساليبها ، و تقنياتها الخاصة والمختلفة والمتنوعة.[2]وللسخرية وقع في النفس وفائدة لها ويكفينا دليلا أن رسولنا الحبيب قد دعانا إلى الترويح عن النفس و تطييب الخاطر المهموم و هذا لقوله صلى الله عليه و سلم " روحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلت ملت " ، ونجد في هذا المقام قول الفيلسوف الصيني **لن بوتانغ**" الضحك يصفي القلوبمن كدرها " ومن الخير أن لا ينسى المرء لروح الفكاهة من خطر الشأن فإنها ثقيلة بان تهذب حياة الناس وأخلاقهم ، و إذا اتوا في الناس نصيبا من روح الفكاهة أو أوتوا رثاء العقل و بساطة التفكير، ورقة التعبير. فالفيلسوف هنا يبرز لنا دور الفكاهة ووظيفتها في المجتمع البشري إلا وهي تطهير الروح وغسلها من مختلف الهموم المتراكمة ، المحصودة من خلال مسيرتنا الحياتية هذه التي لو بقيت داخل النفس لجعلت القلب فحما و النفس رماده كما أنها تعمل عمل المنسق المنظم للمجتمع من خلال زراعة الأخلاق الطيبة فيه وكونها تولد الحكمة وحسن التبصر وكذا حسن تفسير الوقائع التي تصادفنا في حياتنا ومدى استجاباتنا لتقبلها وتصرفنا معها بعقلانية، ونجد من قول **أبي تمام** ":

الجِدُّ شِيمَةُُ و فِيهِ فُكَاهَةًُ**** سِجْعُُ ولاَ جِدُّ لِمَنْ لَمْ يَعَبِ[3]

---

[1]- تاج العروس ج 11 لمحمد مرتضي الزبيدي – علي هلالي ، حكومة الكويت ط 2=1407-1987 م (مادة سخر)ص521 .

[2] -جحا في أغرب نوادره و لطائفه د.بسام أمين – مكتبة العربي ط 01 :1434-2013 م ص 5

[3] -الفكاهة عند العرب – اطفي عثمان السبس دار وائل – عما ن الاردن ط 01 – 2004-2003 ص28

ـ فمن هذا المنطلق نرى أن العرب عرفوا السخرية و الفكاهة منذ القدم أي منذ العصر الجاهلي، فكثيرا ما اختلط جدهم بهزلهم و ليواصل السخرية و الفكاهة رحلتهما التطورية لتكتمل صورتهما بمجيء الإسلام و خير دليل ما سلف التطرق له أن الرسول عليه الصلاة والسلام حث أمته على الترويح عن النفس بين الحين و الأخر ونظف على الهزل المراد به قضية ما غاية في الجد ، لتأتي السخرية مصبوغة صبغة أخرى بحلول العصر الذهبي للأمة العربية ، إذ ظهر آنذاك ما يسمى **بالهجاء الكاريكاتيري** وهو تصوير المهجو بصورة طريفة جدا لما حدث مع ابن الرومي حين وصف صديقا له غاية في البخل، في إحدى أبياته لدرجة انه لو استطاع أن يتنفس من منخار واحد لفعل، ولعل هذين اللفظين إن ما ذُكِرا فإنه سيتبادر لأذهان كلّ عربي أعلامها أقصد بهذا أشعب و جحا، فالمعروف عن أشعب شدّة البخل المتّسمة بالهزل دوما ، و أشعب هذا نشأ في حجر عائشة بنت عثمان بن عفان رضي الله عنه ، و أما العلم الثاني الذي ضحكنا على طرائفه ، و ابتسمت شفاهنا لمجرد سماع اسمه ، من لا يعرف الشخصية الفكاهية جحا هذا الذي صورته الكتب والحكايات صورا عدة لدرجة أنه بات كشخصية خيالية أسطورية لم توجد في الحقيقة، لكن الواقع عكس هذا الظن فإن جحا قصة أو شخصية خيالية البعض ربطها بسرعة البديهة والبعض الآخر ربطها بالغباء و السذاجة لكنا ما عثرنا عليه في هذا الخصوص أنه **ملا نصر الدين** كما سماه الإيرانيون أما الأتراك فقد أطلقوا عليه اسم **خواجة نصر الدين،** وقد أورده الجاحظ في كتابه "البغال"[1]

ـ و نجد أن **ابن وهب** قد ارجع فن السخرية إلى اتجاهين : الأولّ يخدم المجتمع وهذا كما سلف الذكر عملية التطهير التي يقوم بها و غسل الأرواح من الحقد ... والثاني التوقف عند حد المزاح و الضحك لا اقل و لا أكثر و هذا هو الأخطر و قد سلف أن توصلنا إلى ذكره وتجسيده عن طريق قول الفيلسوف الصيني **لن بوتانغ** أما ابن وهب فقد اقر ما يلي:" الهزل ما صدر عن الهوى، و الناس فيه على ضربين" **الحكماء :** الذين يلجأون إليه في أوقات كلل أذهانهم وتعب أفكارهم ،**و السفهاء والجهال :** الذين يستعملون للخلافة

[1] - ينظر: المعجم المفضل في الدب – د – محمد التونيجي ج 01 ص 310 .

والمجون ولمتابعة الهوى" نجد كلام العلماء والهزل إذا أريد به الجد من قبل العلماء كان جدا[1]

ـ أما الجاحظ فقد اتبع و انتمى الضرب الأوّل أي انه كان يتعرض لقضايا واقعية هزلية، ولعل من أهم ما ضم زبدة خفة ظله مؤلفاته المذكورة سابقا[2] ـ أما البيان و التبيين فقد حضي ببعضهما ، حتى و أن لم يكن الهزل صادرا منه ، فهذا لم يمنعه أن ينقل لنا بعضا منه ورد في أقوال استشهد بها في مؤلفه هذا وسنزيد الأمر وضوحا أكثر من خلال بحثنا عن حضور هذه الميزة بالخصوص و بلورنا كل هذا في الأمثلة التالية:

- التمثيل لبعض من الهزل والجد في استطرادات الجاحظ:

- فأول مثال نفتتح به هذه النقطة ماجاء به في قضية **لثغة واصل بن عطاء** حيث نقل لنا أقوال ساخرة منه ذات قالب فكاهي مضحك من أهمها ما يلي :

مَالِيْ أشَايِعُ غَزَالاً لَهُ عُنُقٌ *** كَنَقْنَقِ الدُّوِّإنْ مثُلاَ وإنْ وَلَّى

عُنُقُ الزَّرَافَةِمَابَالِي و بَالُكُمْ *** أَتُكْفِرُونَ رِجَالاًأَكْفَرُوا رَجُلاَ

ـ فمن خلال هذين البيتين نجد أن بشارا قد اتخذ صفة طول عنق واصل كوسيلة محركة للنسيج الفكاهي الذي تبعه فيما بعد و الغزال ليس المقصود هنا الحيوان الغزال " إنما هو لقب به واصل و ذلك لزعمهم انه كان يطيل الجلوس في سوق الغزالين " و**نقنق الدو** وهو طائر يشبه النعام تقريبا معروف بطول عنقه ، فقد و صلت به السخرية والاستهزاء بواصل إلى حد أنه قارنه بالزرافة و أنها لا تضاهيه طولا في العنق .ليرد واصل عليه واصفا إياه بأطرف الصور و اهزءها و هذا في قوله :

" أما لهذا الأعمى الملحد المشنّف المكنى بابي معاذ من يقتله ، أما و الله لو أن الغيلة سجية من سجايا الغالية ، لبعثت له من يبعج له بطنه على مضجعه و يقتله في جوف منزله وفي يوم حفله ..."؛ للإشارة فإن الغالية هي فرقة من الفرق و هي المنصورية ليواصل الجاحظ هذه القصة ساردا إياها مع ما صاحبها من مقتطفات فكاهية ضاحكة حتى وأن كانت عن غير قصد ، فالقول التالي الذي يعتبر تعقيبا و سخرية من القول المذكور من

[1] - الكلام و الخير – مقدمة للسرد العربي : سعيد يقطين – المركز الثقافي العربي – بيروت لبنان ذ 01 -1997- ص54

[2] - ينظر: الجاحظ دائرة معارف عصره – فوزي عطوي ص 103 .

قبل واصل إذ يورد لنا الجاحظ رد أو تعليق كل من **إسماعيل بن محمد الأنصاري، عبد الكرين بن روح** على كلام واصل اخذين مشكلته النطقية كمعيار لحزم أخطاءه ، متتبعان كلامه خطوة خطوة وكلمة كلمة و تبيان للقارئ لماذا لفظ هذه الكلمة دون غيرها و كيف أنه تجنب وعلى طول [1]كلامه نطق حرف " الراء " فقال الأعمى بدل " بشار " و الملحد بدل "الكافر"، الغلية بدل" المغيرية " ، لبعثت بدل " لأرسلت " وغيرها من الألفاظ التي ستأتي مختصرة موضحة في قولها : " إلا تريان كيف تجنب الراء في كلامه هذا ، وأنتما للذي تريان من سلامة و قلة ظهور التكلف فيه لا تظنان " التكلف مع امتناعه من حرف كثير الدوران في كلامهم ، ألا تريان أنه حين لم يستطع أن يقول " بشار " وابن برد ، والمرّعث جعل المشنف بدلا من المرّعث و الملحد بدل الكافر وقال "لو لا أن الغية سجية من سجايا الغالية و لم يذكر المنصورية و لا المغيرية لمكان الرَّاء و قال لبعثت إليه من يبعج بطنه، و لم يقل لأرسلت إليه ، و قال : على مضجعه و لم يقل : على فراشه ، و كان إذا أراد أن يذكر البر قال : القمح أو الحنطة ، و الحنطة لغة كوفية والقمح لغة شامية ، هذا و هو يعلم أنه من قال بر أفصح من لغة من قال قمح أو حنطة ..."[2]

ـ وورد في موقف آخر حين ذكر لنا رد بعض الشعراء على بشار بن برد و ذلك في تفضيله النار على الأرض ، وهذا لقول **حماد عجرد** :

ويَا أقْبَحُ مِنْ قِرْدٍ *** إذَا مَاعُمِيَ القِرْدُ

ـ كذلك حين ينقل لنا قول بعض الشعراء أيضا في أخويه و العاهات التي طالتهم الثلاثة:

وَلَدَتْ خُلْداً وذِيخًا فِي تَشَتُّمِهِ **** و بَعْدَه ُخِرَاراً يَشْتَّدُ فِي الصَّعَدِ

ثَلاَثَة ٍمِنْ ثَلاَثٍ فُرِّقُوا فَرْقَا **** فَإعْرَفْ بِذَلِكَ حِرْقُ الخَالِ فِي الوَلَدِ

ـ **و الخلد :** ضرب من الجرذان يولد أعمى[3]، **الذيخ :** ذكر الضباع و هو أعرج[4]**الخرر:** ذكر الأرانب وهو قصير اليدين لا يلحقه الكلب في الصعد .ويواصل الجاحظ محطاته الفكاهية إلى أن يصل بنا إلى موضع **مفهوم البلاغة عند سهل بن هارون** حيث يصف لنا

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج1 : لابي عثمان عمرة بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 38-39
[2] -البيان و التبيين : لابي عثمان عمرة بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق علي ابو ملحم ص 39
[3-المصدر نفسه ص 48-49

صورة **أبو شمر** أثناء إلقائه خطبة و كانت صورة طريفة جدا تظهر من خلال قوله :" وكان أبو شمر إذا نازع لا يحرك يديه و لا منكبيه و لم يقلب عينيه ، ولم يحرك رأسه، حتى كأن كلامه أنما يخرج من صدع صخرة ..."

ـ انطلاقا من كل الأمثلة المذكورة سابقا نجد أن الجاحظ يتهكم بخصه عن طريق ما يستمده من فكرن الحسن من معان حسان ، بعد أن استغل فكرة القبح في سخريته المباشرة ، وقد حشد الفكرتين كثيرا من الأدلة و كثيرا ما كان يسوق فكرة القبح على لسان صاحب السخرية هذه ، ثم يرجع و يعلق بطريقته الهزلية الخاصة به و هذا الشيء طبيعي كونه راجع إلى طريقته الجدلية التي سقته من ينابيع المعاني المختلفة و الأوصاف و التفنن في إيصالها بحلة إبداعية جاحظية غاية الروعة، هذا ما جعل أسلوبه يتصنف بالإمتاع والمؤانسة بما قد حوى من حلاوة المعنى دقته، فيجعل لكل طبقة من ذلك الكلام أي إعفائه لكل ذي حق حقه و مع هذا فان طرافته لا توصف [1]إلى حد أنه لم يكف بما نع حتى وأن كانت على نفسه إذ تذكر من أمامه فراته ، فنادت عليه و قالت له سر معي سار معها مع جهله الوجهة حتى وصلت إلى حداد فقالت له **مثل هذا** ثم مضت استغرب الجاحظ فسأل الجاحظ الصائغ فأجابه المرأة تلك طلبت منه سابقا أن يصنع لها سلسل عليه صورة شيطان فقال لها انه لم يسبق له وأن رأى شيطانا فرحلت ليومه و لما عادت عادت بك، وفي موقف آخر حين كان الجاحظ مع بعض أصدقائه في المعسكر اجتمعوا للأكل مرّت بهم امرأة طويلة القامة ، صخر منها الجاحظ قائلا لها انزلي كي تآكلي معنا فأجابته لما لا تصعد أنت لترى الدنيا.

- إذاً و قبل أن نغلق أبواب هذا المبحث لا باس نسطر تحت هذه النقاط المستخلصة منه.

ـ السمؤال أول من انشأ و أوجد الأسلوب الاستطرادي .

ـ الأسلوب الاستطرادي موجود في الشعر و النثر على حد سواء.

ـ تفوق أبو هلال العسكري ابن رشيق لمفهوم المنهج الاستطرادي دلالة على تأثرها.

---

[1] -فن السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب التربيع و التدوير – البخلاء –الحيوان ، د – رابح العربي ص 152

ـ انعكاس الثقافة اليونانية " الفلسفة " على أسلوب الجاحظ فكانت ميزة من أهم ميزاته
" الطريقة الجدلية " .

ـ طبيعة الجاحظ الشعرية حتى و لو كانت قليلة مقارنة مع الأدبية النثرية مكنته تضمين أسلوبه و تطعيمه بالسجع ما خلق لجملة المزدوجة نغما و إيقاعا.

ـ الهزل المراد به الجد طريق و درب الجاحظ و أن صح القول شخصية الجاحظ الحقيقية.

ـ المنهج الاستطرادي خير حيلة لشدّ و جذب القارئ مهما كان.

ـ المبحث الثاني: ـ دوافع إتباع الجاحظ المنهج الاستطرادي:

ـ كما نعلم أن أي طريق وجد أو و ضع في هذه الحياة و تمت متابعته أو سلوكه فإن هذا راجع لأسباب ومقومات جعلتنا نسلك هذا المسلك دون ذلك و هذه الأسباب على تنوعها قد تكون ذاتية، سياسية، موضوعية...الخ، فحتى الموت و له أسبابه فكيف لا تكون أسباب وأسباب في حياتنا، و أسلوب الجاحظ الاستطرادي و برده إلى المنطق و العقل، و العلمية فأكيد له دوافعه و أسبابه التي مكنه من إتباع هذا الطريق خصيصا و لعل من ابرز الدوافع ما سيتم ذكره.

ـ دوافع الاستطراد عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين :

1- الردّ على الشعوبية :

ـ و لكي نفهم هذه النقطة لا بد لنا أن نقف وقفة تأصلية حول الشعوبية ومن هم الشعوبيون ، إذا الشعوبية هي حركة ظهرت إبان العصر الذهبي و هم جنس من غير العرب سوءا كانوا : فرس ، ترك ، عرفوا بعداوتهم الشديدة للعرب و طعنهم في أصالتهم و تراثهم ومفاخرهم ، إذا فان الجاحظ قد ثار على هذه المجموعة لحماية العرب و أصلهم ، وقد وردت في كتاب البيان و التبيين في الجزء ، هذا الرد وهذا حين انتقد الشعوبيين العرب وقالوا بأنهم مدحوا الفرس " الخيل " و أنهم أول من فعل هذا ، كما أنكروا أن يكون ركوب الخيل في الحرب شيمة أن ما اعتبروه خوفا و ارتباك و لقد اتهم هارون بن سهل بالشعوبية في رسالته " رسالة النخل " على العموم فالشعوبية قامت على اثر الاستهزاء و الازدراء بالعرب ، عاداتهم وتقاليدهم ....و غيرها لهذا قد ثار عليها الجاحظ بغية حماية الأصل العربي من خضوعه للمغالطة و الطمس في هويته.[1]

[1] -ينظر:الزندقة و الشعوبية في العصر العباسي الأوّل : عطوان حسين – دار الجيل بيروت لبنان ط (دت) ص16

2- غزارة الثقافة عند الجاحظ :

فرصيد العلماء الأوائل الثقافي كان كبيرا و ضخما جدا ماحذا بالجاحظ وغيره آنذاك أثناء التأليف إلى الطابع الموسوعي في العرض وهو محصلة ثقافية الخاصة المجموعة والمكونة من عدة ثقافات و جهات مختلفة .

3 - تشعّب البحوث:

- عندما نهض العلماء الأوائل إلى تعريف مباحث العلوم كالبلاغة مثلا اتسمت تعريف تهم بالشعب والتفرع ، وقدا هذا النوع إلى تشعب البحوث التي تناولت النماذج الشعرية والنثرية، ومعنى هذا أن الجاحظ نبغ في فترة كانت لم تشهد بعد تصعيدا للعلوم البلاغية فالبلاغة في القرنيين الثالث و الرابع شهدت فترة جمود و ركود ، ولعل طريقة الجاحظ مهدت لميلاد مرحلة تقنية جديدة في تاريخ آداب العربية ككل على وجه العموم والبلاغة[1] على وجه الخصوص ، و هذا ما أثبتته الدراسات أو التأليفات البلاغية التي أتت بعده من أمثال : البرهان في وجوه البيان **لابن وهب** ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، ابن رشيق القيرواني العمدة في محاسن الشعر ، و غيرها من المؤلفات التي حملت في طياتها مرحلة متطورة جديدة في تاريخ البلاغة العربية.

4 - أسلوب التلقين:

أما السبب الرابع الذي دفع بالجاحظ إلى الاستطراد فهو راجع إلى أن أسلوب التلقين أي التعليم كان متحكما في عقول الباحثين ، و الجاحظ بطبيعة الحال و كما هو معروف كان معلما يعلم تلامذته الفصاحة و البلاغة ، وعلوم البيان العربي ، وكان الطلاب يأتونه من كل صوب و حوب ، كما أن هذا الأسلوب " التعليم " يعتمد في الأساس على الاستطراد فلما التفت هؤلاء الباحثين التأليف .

هذا الأسلوب طغى على أعمالهم التي كان طابعها المميز. ومعنى هذه أن الجاحظ وكما هو معروف أنه كان كثير الجلوس في سوق **المريد** و كان دائم الاستماع الى حكايات

[1] -ينظر : المصادر الادبية و اللغوية في التراث العربي – عز الدين إسماعيل ، دار النهضة العربية ، لبنان بيروت ، ط (دت) ص 43

وروايات الأعراب وغيرها مادفعه إلى التفكير في تأليف مؤلف يجمع هذه الآراء،الأقوال الأحكام...

ـ هذه الأسباب و الدوافع على حسب ما أتى به الدكتور عز الدين إسماعيل[1]أما نحن فقد ارتأينا إلا أن ندرج دوافع أخرى كانت ملخصة كالتالي:

5 ـ جمع شتات الملاحظات النقدية :[2]

ـ و لعل ابرز ما يؤكد هذا الدافع حين ذكرنا سهل بن هارون و قوله في البلاغة فكان : " لو أن رجلين خطبا أو تحدثا أو احتجا أو وصفا و كان أحدهما جميلا جليلا[3] بهيا و لباسا نبيلا ، وذا حسب شريفا ، و كان الآخر قليلا و ميتا ، و باذ الهيئة دميما ، وخابل الذكر مجهولا ، ثم أن كلاهما في مقدار واحد من البلاغة " .

كذلك لما نفى قول بشر بن المعتز حين قنن البلاغة فقال : " خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك و إجابتها إياك ، فان فليل تلك الساعة أكرم جوهرا واشرف حسبا ، وأحسن في الإسماع ، و احلي في الصدور ، و اسلم من فاحش الخطأ ، واجلب لكل عين وقرة ، من لفظ شريف و معنى بديع ..."

ـ و غيرها من الملاحظات التي جزء من البيان و التبيين فيها إن لم نقل كلّه .

6 ـ محاولة الوصول إلى تقعيد :

ـ فكان الجاحظ حين أراد تأليف كتابه هذا و بطريقة الاستطرادية هذه كان يهدف إلى الوصول لوضع حدود مقننة للبلاغة هذا الفرع الذي امتاز بالتشعب مواضيعه واختلافات الملاحظات الصادرة فيه، وكثرة المتتبعين و المهتمين به ، ولكن الجاحظ لم يوفق في هذا إلى حد بعيد ذلك بسبب ثقافته الواسعة و نقله عن الأعراب التي وقفت كحاجز بينه وبين هذا الدافع المرجو منذ بادئ الأمر وشاءت الأقدار أن يكون قد أعطى بهذا الضوء الأخضر للدراسات آلاتية لمواصلة و تحقيق هذا الدافع.

---

[1] -محاضرات في مصادر اللغة و الأدب :السنة أولى جامعي شعبة أدب عربي – د – محمد نحير شي و الأستاذ لطفي بوقربة ص 128 .

[2] - تاريخ النقد عند العرب من العصر الجاهلي –ق – 4 ه ا –طه أحمد إبراهيم ص 132

[3] - النظريات اللسانية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيين د – محمد الصغير بناني ص 28

ـ و لعلّ ما أرشدنا إلى هذا الاعتقاد و ما يكون تصورنا هذا هو أن جل الأقوال التي ضمنها الجاحظ في كتابه هذا مثل ما ذكرنا آنفا ، فهي عبارة عن أحكام و أراء فقط للتقعيد المنهجي بلاغي محض .

7 ـ تشعب العلوم في تلك الحقبة :

ـ فكما نعلم أن الجاحظ من معاصري العصر العباسي ، و سمي هذا العصر بالعصر الذهبي لما برزت فيه من علوم عدة و تشعب اهتمامات الناس الموجودين فيه ولعل الفصل الأوّل والأخير في هذا يعود إلى حركة الترجمة التي عرفت مرحلة طوفانية آنذاك ، إذ سارع العلماء والأدباء حينها إلى ترجمة اكبر عدد ممكن من الكتب الغربية خاصة اليونان وبالأخص المنطق و الفلسفة ، و حتى الخلفاء كان لهم دورهم الأكبر في تشجيع و مساندة هذه الحركة لتكثيفها إذ انه و في عصر المنصور كان يدفع قطعا ذهبية على حسب الكتاب المترجم أي انه كان يزن الكتاب المترجم ثم يدفع بحسب ذاك الوزن المال فكلما زاد ثقل الكتاب زادت القيمة المالية ، وهذا لم يمنع بعض المترجمين إلى التحايل لزيادة أوراق الكتاب المهم تعتبر و على حسب رأينا الخاص أن هذا دافع قوي لجعل الجاحظ يسارع إلى حفظ تلك العلوم دون تصنيفها و بالتالي ورود الاستطراد في تأليفه يكون بطريقة عفوية تلقائية ، حيث نلمح ولوج الفلسفة و بشكل واضح في كتابه البيان و التبيين[1].(1)

8 ـ اتساع رقعة الدولة:

ـ عرفت الدولة العباسية اتساعا لا يوصف و لا يقارن بما سبقها " الأموية " حيث أن أهم ما ميز هذه الفترة هو دخول الأجناس المختلفة ، فكانت بهذا كوعاء صبت فيه مختلف الحضارات و المعارف .

[1] -الجاحظ دائرة معارف عصره ، فوزي عفوي ص 105 .

ـ و للإشارة فان هذا الدافع هنا يعتبر غير مباشر لجعل الجاحظ يستطرد في كتابته ،وهذا أنه و حين اتسعت رقعت الدولة و عرفت عدة أجناس ، اجتمعوا و تعايشوا وعاشوا مع العرب حدثت بينهم ما يسمى بالتأثير و التأثر أي الأخذ و العطاء.

يغذي عقل العربي و سقلت أفكاره ، فحصلت على مردود ثقافي لابأس به أو ضخم إن صح القول و من هؤلاء : الجاحظ ، و لما حصل هذه المعرفة كلها ما أحب إلا أن يدونها ويثبتها لتصبح تراث عريق ، اعتمدت عليه جلّ الدراسات اللاحقة[1]

9 ـ تدوين و حفظ التراث العربي من الضياع [2]

ـ فهذه النقطة هي بمثابة تحصيل حاصل و ذلك أن الجاحظ كما سبق الذكر قد رامى من خلال كتابته هذا ترسيخ التراث ، وان تحدثنا بلغة عصرنا أي عصر التطور والتكنولوجيا، فإننا نجد الجاحظ كبنك دولي جمعت فيه مختلف العملات من شتى المناطق وبخاصة العرب فإنك لا تبحث عن شيء في مؤلفه إلاّ وجدته سواء ما اتصل بالجانب اللغوي أو بالأدبي وهذا بجمعه أقوال علماء ، فقهاء ، بلغاء ، من تراثنا القديم و نقلها لنا عن طريق رواية إما أخبارهم أو أعمالهم .

و بهذا نكون قد وصلنا إلى ختام هذا المبحث بصفة خاصة و الفصل هذا بصفة أعمّ، ومن النتائج المتوصل عليها ككل فيه مايلي:

ـ طعن الشعوبيين بأصالة العرب دلالة على عراقة و تفوق هذه الأخيرة عليهم.

ـ ثراء الجاحظ المعرفي و الثقافي وضعه أمام اللامحدودية في الكلام وعدم ترتيبه.

ـ الأسلوب الاستطرادي سيمة من سيمات أسلوب التلقين .

ـ خضوع البلاغة في عصر الجاحظ رغم الكم الهائل من التأليف إلى ظاهرة الجمود وهذا راجع للتأليف دون وضع قواعد أو قوانين .

ـ استطراد الجاحظ كان كالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على الآخرين، فبفضله التف أحدث المؤلفين إلى ذلك النقص و تممه و بهذا ظهور مرحلة التقعيد للبلاغة.

ـ اختلاط الأجناس و اتساع رقعة الدولة في العصر العباسي مكن معاصريه من حصاد كمية لا باس بها من الثقافات المختلفة.

[1] -النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية للجاحظ من خلال البيان و التبيين – محمد الصغير بناني ص 15
[2] -الجاحظ دائرة معرف عصره – فوزي عطوي ص105

ـ ورود كتاب البيان و التبيين بصورة المخزن للتراث العربي وهذا ظاهر في صفحاته إذ ضم لنا أقوالا ، حكما ، علما أنه شهد نقصا من الجهة العلمية المنهجية .

الفصل الثاني :نماذج الاستطراد في كتاب البيان و التبيين

توطئة:

- يعد كتاب البيان والتبيين للجاحظ كتابا حير عقول العلماء، الأدباء عامة والمصنفين بصفة أخص، لكونه إلى أي جانب ينتمي لاحتوائه على مسائل سياسية اجتماعية، تاريخية، أدبية وحتى علمية وهذا بتعرضها للمشاكل النطقية وشرحها و ذكر مسبباتها إن أمكن بالأخبار والأمثلة ومع تنوع حقول قطفها (الشعري، النثري، الأمثال الآيات...)، لكنّ المعاب عليه هو عدم خضوعه للمنهجية العلمية واحتكامه إلى الاستطراد ومعالجة عدة قضايا متداخلة كل واحدة تجذب بالضرورة الأخرى ، ولعل هذا أثبتته دراستنا هذه إلى حد الآن، وبتحكم العقل و المنطق فكيف لكتاب[1] ضم شمل العلوم المختلفة أن يكون منظما ، أكيد سيشهد خلفا في ثناياه ، استطرادات في أسلوب صياغته لكن وبالرغم من هذا فانه لم يكن مانعا أن يكون البيان والتبيين وبصفة موضوعية بحتة كتابا نقديا مكتملا ذو رؤية شاملة وتعبير واضح لحياة العرب وتطورها ، وهو كذلك وسيلة للتعبير عن علم الكلام عامة و المعتزلة و الجاحظية على وجه الخصوص، إضافة لكونه يعبر أيضا عن الفلسفة الكلامية المأخوذة من تأثر العرب باليونان ـ المنطق ـ وتطبيقها على دراستنا العربية، ولعل أهم ميزة قربت هذا المنهج إلى نوع من المنطقية إن لم نقل العلمية هي وجود رابطة بين كل موضوع و آخر و عليه و كما سلف التوصل أليه رأينا أنه سمي بالتقريع، و إن شاء المولى ففي ها الفصل سنعرض أهم مظاهر الاستطراد للوقوف على تأكيد الجزم السابق[2].

[1] - يراجع : مقالة : البيان و التبيين بوصفة نقدا شعريا – د – قسس كاضمالحنابي– جريدة الاتحاد – العراق 2005 .

المبحث الأول: قضية البيان و الدلالة

ـ البيان في اللغة مأخوذ من بين و إبان تبينا أي تفيد الظهور ، الإيضاح و منه قولك انبت الطريق إذ وضحته ، و أبان فلان عما بداخله أي أفصح و اخرج المكتوب عليه ونجد في هذا النطاق[1]قوله عز و جل .(1)

ـ أما في الاصطلاح فنجد عند **القز ويني** معناه أنه عبارة عن علم يهم ويعرف به ايراد المعنى الواحد على أضرب متعددة و مختلفة ما يقتفي هنا إما و ضع اللفظ في الموضع الغير الأصلي لها في الأساس و هذا المفهوم يقترب نوعا ما من المجاز لكن شريطة الوضوح و الابتعاد عن المبالغة تكسب الأسلوب روعته و تفقد المعنى جماليته التأثيرية أما **الجرجاني** فهو يرى أنه علم يبحث في الدلالات العقلية للتراكيب من حيث التذاذ النفس بها لا من حيث وضوح الدلالة ، أما المحدثون فقد استدلوا عليه **بالصور المجازية** المكونة من ثلاث: تشبيه ، استعارة ، الكناية [2]فعن طريق المجاز نضج عقل المبدع و نشط أكثر لدرجة أنه بات عليه من السهل إقامة علاقات جديدة بين الناس والموجودات فكان التقاء هذه الثنائيات التقاء يتجاوز الممكن ، لكنه لا يتجاوز الخيال أي اللاّمعقول فهنا يخرج الكلام وصياغته من إنسان مبدع عاقل إلى كلام صادر من مجنون مهلوس و في هذا النطاق عثرنا على قول **جابر عصفور** إذ يقول أن الصورة أي البيان ، المجاز هي الوسيلة أو الكاشف الأساسي الذي يستكشف به الشاعر أو المبدع روحه الإبداعية ، فيصبغها صبغة النظام و يغلفها بغلاف المعنى، والصورة البيانية كما يؤكد لنا د – عصفور أنها ضرورية لا يمكن الاستغناء عنها أو حذفها مثلا كالصفة وهذا حين أو في حالة يريد فيها الشاعر أو المبدع التعبير عن شيء أو إيصال رغبة لا[3]يمكن شرحها أو توصيلها دون تمثيلها بصورة جمالية تحمل بعض التأثيرية.(3)

ـ أما نشأة علم البيان و إن تتبعنا خطواتها لوجدناها مرسومة منذ العصر الجاهلي لتتطور أكثر بظهور الإسلام لأسباب منها تحضر العرب، استقرارهم في المدن والأقطار المفتوحة، الجدل القائم بين الفرق وبالتالي هناك ميزة ميزت البيان في هذه الفترة فكانت

---

[1] -الإيضاح في علوم البلاغة : تصحيح د – محمد المنعم خفاجي – دار الكتاب اللبناني بيروت لبنان .ط.(دت)ص246

[2] - علم البيان بين القدماء والمحدثين – دراسة نظرية وتطبيقية .أ-د حسني عبد الجليل يوسف – دار الوفاء الإسكندرية مصر . ط 01 : 2007 ص10 .

[3] - دراسات في علم البيان الصورة البيانية في التراث البلاغي .د-حسن طبل –دار الزهراء مصر 1986 ، ص 464

نشوء الملاحظات البلاغية و كلها مشتقاة من القران الكريم ، لتتطور في العصر العباسي ، فإلى جانب نشوء البيان والبلاغة تقدمت العقول الأدبية خطوة نحو الإمام تمثلت في تدوين وتسجيل تلك الملاحظات وابرز مثال على هذا الكتاب الذي نحن بصدد دراسته كل ما يحول به **البيان والتبيين** وكانت وراء هذه القفزة النوعية نحو التجديد والتغيير عدة أسباب منها تطور الشعر و النثر من خلال التعرف على آداب الأقوام الأخرى كالفرس مثلا ، وعليه ظهور ضربين من العلماء المعلمين هم المهتمين بشؤون البلاغة و البيان و الجاحظ واحداً منهم ، و ضرب من اللغويين هم الذين لجئوا إلى تعليم أصول الأدب النحوية واللغوية من بينهم مثلا : الأخفش أبي عبيدة ، الفراء ، ....،كذلك وجود ضرب آخر من العلماء ظهروا في العصر العباسي هم علماء الكلام و من أبرزهم المعتزلة المتمثلة في شيخها: النظّام ، واصل ، الذيْنِ كانا يرتكزان على الجدل الخطابة و الجاحظ قد حفظ لنا من خلال مؤلفه هذا قدرا كبيرا من ملاحظات المعتزلة خاصة التي لها صلة بالبلاغة و قد أنشأها من مصدرين تداخله مع الثقافات الأجنبية خاصة اليونانية و مختلف التقاليد العربية، كأنه زاوج بين حضارتين العربية و الغربية و أدمجها حُسْن الإدماج [1]

1 ـ البيان عند الجاحظ :

ـ الشيء المؤكد إلى غاية اللحظة و بناءا على مادرسنا و ماحصّلناه من معلومات حول هذا الأديب يكفينا أن نقول أنه من كبار أئمة البيان العربي ، فلم يرضى أن يتتبعه ويسلك دربه على مناهج و ضعها العلماء قبله بل راما من خلال جل مؤلفاته خاصة والبيان والتبيين على وجه الخصوص إلى التفوق إلى البيان مع تقديم تعريف خاص به هو، وإضافة إلى تقسيمه إلى أقسام و اشترط فيه شروط يجب توفرها كي يكون الكلام مبينا واضحا و لعل هذا الموقف أي موقفه المشارك و المساهم في تطعيم البيان و إكمال صورته المفهومية راجع إلى الطبيعة القائمة فيه و هي الطبية النقدية ، فجاء البيان عنده أن استدل على عكس لقطة المجاز المعروفة عندنا اليوم بلفظة **المثل** أي الحقيقة و هذه إحدى نقاط تبيان كيفية ورود البيان في دراسات الجاحظ[2]، كذلك قال عنه: والبيان اسم جامع لكل

[1] - ينظر في البلاغة العربية ، علم البيان – د – عبد العزيز عتيق ، دار النهضة العربية ، بيروت لبنان . ط.(د.ت) ص11

[2] - في البلاغة العربية – علم البيان – د- عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية ص 11.

شيء كشف لك قناع المعنى و هتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقة و يهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان و من أي جنس كان الدليل لأن مدار الأمر الغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم و الافهام فبأي شيء بلغت الإفهام و أوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع .[1]

ـ ومن المقولة أعلاه نجد أن الجاحظ اعتبر أي شيء ابتعد عن الغموض و اللبس في المعنى و أوضح لك المقصود حتى يستوعب المتلقي ذلك الكلام المبين ، فيدركه ويتقبله و عليه يشارك في بلورته أكثر أما عن طريق النقد او التدعيم و الموافقة له مع اختلاف المجال الكلامي فيه فهذا لا يعتبر نقطة مهمة كما أكد الجاحظ لأن الأهمّ هو تحقيق الفهم للقارئ ، ليشترط أن الوضوح كدلالة و محصل للبيان فمن حاز الإيضاح في الكلام كان مبينا بالضرورة ، اذا الجاحظ كان كلامه مبينا وفقا ما لمسناه و ما من لمسه من خلال دراسة استطراداته الكثيرة الآتية ذكرها إن شاء الله .

ـ و لم يقف الجاحظ عند حد التعريف للبيان إنما تعداه ليحصي لنا عيوبه و المشاكل المانعة من إتمام آلته و بيان صورته لدى أي واحد، فكانت بعضها مدونة كالتالي:

1 ـ العي :

ـ ومعناه اللغوي مأخوذ من عي أي الثقل أو الضعف و الوهن أما هنا فيعني الثقل أما اصطلاحا فهو يعتبر من العيوب النطقية و يستدل عليه بعسر الكلام أو صعوبته حيث يستغرق فيه المريض فترة صمت في بدء الكلام رغم ظهور محاولاته للنطق ثم يعقب ذلك النطق الانفجاري السريع و هو حالةيعجز فيها الشخص عن النطق بأي كلمة بسبب توفر العضلات الصوتية و جمودها و لذلك نرى الفرد الذي يعاني هذا العيب يكلف نفسه في إخراج الكلام و لفظ الحروف فان بلغ مراده اندفع كسرعة البرق إلى غاية نهاية الجملة ثم يعاود نفس العملية ، وقد تحدّث هذه المشكلة النطقية لأسباب نفسية أكثر مما هي عضوية متمثلة في الخوف ، عدم الثقة في النفس، عيش حالة التهميش من قبل المحيط المعاش فيه ، تعرضه لحالة التوحد والانطواء على الذات ... أما الأسباب العضوية فقد تعود إلى

[1] -البيان و التبيين ج1لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون ص 76

اضطرابات في الجهاز التنفسي ، التنفس من الفم ، تضخم اللوزتين[1]، أما الجاحظ فقد تعود به في بداية قوله (كتابه) ذاكرا عدة أقوال ضمته في ثناياها منها : **النمر بن تولب:**

أَعِذْنِيْ رَبِّيْ مِنْ حَصْرٍ وعَيٍّ ** و مِنْ نَفْسٍ أعَالِجُهَا عِلاَجَا**[2]

ـ فها هو النمر يدعوا الله أن يجنبه هذه الصفة الكلامية و يسأله العلاج و العافية في روحه ونفسه ، والنمر تولب لمن لا يعرفه هو بن اقشين بن عبد كعب بن عوف بن الحارث بن عوف بن وائل بن قيس بن عكل ومنه لقبه العكلي،[3] أدرك الجاهلية ليوافي الإسلام فاسلم و حسن إسلامه، سمي بالكيس من قبل أبي العلاء لحسن شعره كان من أحد العرب المذكورين وفرسانهم ،و العي كما ورد في كتاب البيان والتبيين هو الثقل أو التخفيف في الكلام مع تداخل الألفاظ من دون إيضاح المقصود والمعنى المراد إيصاله إلى الحرف الأخر ، فهنا نحن نرى من خلال البيان والتبيين كيف أنّ البختكان قد فضل موت الشخص المصاب بهذه العلة على حياته ، وان دل هذا القول هنا على شيء إنما يدل على مدى خطورة هذا العيب على الكلام ككل، وهو بمثابة المصيبة إذا ما حل بالمتكلمين خاصة والأدباء.

2 ـ اللثغة :

أ اللثغة مأخوذة من لثغ و منها المثغغ الذي إذا تكلم حرك أسنانه في فيه باستمرار واضطرب اضطرابا شديدا فلم يبين الكلام ، والمثلغ و هو ما سقط من النخلة ، وأما فيما يخص مادة لثغ و هي ما يهمنا فهي تدل على اللثغة في اللسان وهو أن يصير **الراءغينا** أو **اللام و السين ثاءا** وقد لثغ ، يلثغ لثغا فهو ألثغ و امرأة لثغاء .[4]

ـ أما من الناحية الاصطلاحية فهي مندرجة كنوع من عيوب النطق الإبدالية حيث يستبدل المصاب حرفا واحدا بحرف آخر مثل استبدال حرف **الغين** بحرف **الراء** فيقول **تمغين** بدل **تمرين** أو يقول **ثبورة** بدل **سبورة** وهذا بإبدال حرف السين تاءا وهي عيوب

---

[1] -مقالة : عيوب النطق و مشكلاتها ، أنواعها ، أسبابها ، آثارها بقلم حمدان رضوان أبو عاصي – ديوان العرب 2008/09/16 .

[2] -البيان و التبيين ج1 ـ لأبي عثمان عمرة بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون ص 4 .

[3] -الأغاني . المجلد الثاني ج 6 لأبي الفرج الأصفهاني – دار الكتب المصرية 1935 .

[4] -الصحاح . تاج اللغة و صحاح العربية : إسماعيل بن حماد الجوهري . تحقيق أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين –بيروت – لبنان – ط1 ، 1399 ه – 1989 م ص 1317-1325 .

إبدالية لأنها تشمل جزء فقط أي إبدال حرف فقط لا أكثر و لا اقل[1]، أما الجاحظ فقد مثلها لنا في كتابه بأشهر المصابين بهذا العيب ألا و هو **واصل بن العطاء** الذي تعرضنا له قبلا ، و قد قدم لنا الجاحظ شرحا مطولا فيها بذكر محطات وقوعها و حروفها تواجدها كانت كالتالي :

ـ **اللثغة في الراء :**[2]هي المعروفة عند **واصل بن عطاء** ، قليلة مقارنة مع مثيلاتها لتواجدها هي الأخرى على عدة أحرف ، فمنهم من يجعل **الراءياءا** و منهم من يرجعها**غينا** و منهم من يرجعها **ذالا** و هناك من يرجعها **ظاءا**

و قد أدمج لنا الجاحظ كل هذه المحطات في بيت شعري يرجع الى قصيدة **ليت هندا** لعمرو بن ربيعة التي مطلعها :

لَيْتَ هِنْداً أَنْجَزَتْنَا مَاتَعِدُ **** وَ شَقَّقَ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ

وَاِسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً **** إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَ يُسِتَبَدُّ

ـ فاخذ الجاحظ البيت الثاني و طبَق عليه الاحكام السالفة فكانت النتائج :

واِسْتَبَّدَتْ**مَيَّةً** وَاحِدَة إِنَّمَا الْعَاجِز مَن لاَيُسْتَبَدَّ

واِسْتَبَدَّتْ **مَغَّةً** وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَيُسْتَبَدُّ

واِسْتَبَدَّتْ**مَذَّةً** وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَيْسَتَبُّد

واِسْتَبَدَّتْ **مَظَّةً** وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لاَيُسْتَبَدُّ

ـ **اللثغة في اللام :** هي الأكثر تداولا بين المريضين بهذا العيب ، وتكون في جعل **اللام ياءامثال** : اعتللت **إعتييت** ، وهناك من يبدلها كافا مثال : العلة **العكة** .

ـ **اللثغة في القاف :** و هي وضع **ظاءا** مكان **القاف** ، مثال : قلت له **طلت له**

اللثغة في السين : و هي إرجاع السين ثاءا ، **مثال** : **لابن مسكوم ابن مكثوم** ، وهذا ما عرضناه آنفا ، وهناك كما ذكر الجاحظ من اجتمعت فيه لثغتان و هذا هو الأشنع في نظري و لا علاج له بسهولة ، اقصد هنا المثال ذكره و هو **شوشي صاحب عبد الله بن خالد الأموي** ، فانه زاوج بين لثغة **اللام** و إرجاعها **ياء** و لثغة **الراء** و إرجاعها كذلك **ياءا** فإنه

[1] -مقالة عيوب النطق و مشكلاتها ، أسبابها ، آثارها ، بقلم حمدان رضوان أبو عاصي سبتمبر 2008 .
[2] -البيان و التبيين ج1لابي عثمان عمرة بن بحر محبوب الجاحظ تحقيق عبد السلام هارون ص 33 .

إذا أراد أن يقول **مولاي و لي أمري** قال **موياي وييي و أمي** ، وهنا أدى الى تشويه الكلام بالكامل فلم يترك له و لو ذرة من الإيضاح و الإبانة[1].

3 ـ الفأفأة و التمتمة :

ـ الفأفأة و التمتمة من الجانب اللغوي تفيد الترديد ، التكوير أي تكرر حرف ولعل صياغتها دالة على معناها اللغوي ، أما من الاصطلاح فتقابلهما لفطة **تلعثم** تشبه إلى حد كبير اللجلجة و هذا لنا وقفة معها لاحقا إذاً ، فهي عدم القدرة على التكلم بسرعة، وبسهولة فتراه المتحدث له صعوبة في التعبير عن ما يجول في نفسه ، و يؤكد علماء النفس أن الأشخاص المريضين بهما لا تشفيهم ألسنتهم إلاّ مع أشخاص مقربين منهم او يكونون اصغر منهم سنا .

ـ و المعروف أن السبب الرئيسي لهذه المشكلة النطقية هنا هو الخوف أو الخجل او عدم القدرة على التكيف مع الآخرين ، فكلما نرى عوامل نفسية ، و جاء في البيان و التبيين ذكر **لأبي تمام** إذ قال : [إذا تتعتع اللسان في التاء فهو تمتام و إذا تتعتع في الفاء فهو فأفأة...][2]و معناه أن أبي تمام شرح موقع هذه المشكلة و ماهي الحروف التي تكون فيها فهي لا تكون إلاّ مع التاء و الفاء ، و الثقل او ترديدها دون إكمال الكلام بشكل مستقيم ما ينتج عنه الارتباك الكلامي .

4 ـ اللفف :

ـ اللفف في اللغة مأخوذ من لف ، يلف ، لفيفا ، أي طوى ، ثنى ، أو أدخل الشيء في شيء أخر، و لفيف اللسان إدخال الكلام بعضه بعضا، إماّ يأخذه كمشكلة لسانية فنجده يعني تتابع وتراكب و توالي الحروف في الكلمة الواحدة أو مع مجموعة من الكلام و هذا التداخل ينتج عنه تشويش وخلل في الفهم لان الكلام في هذه الحالة يبدو كمقطوعة واحدة و كتلة متراكمة الأطراف و لعل اللفف يشبه إلى حد بعيد العي فهو كذلك ينتج من طول السكوت والانطواء و الابتعاد عن العناصر الاجتماعية المختلفة ، و الجاحظ عرفه لنا عن طريق

[1] - البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون ص 35 .
[2] -المصدر نفسه ص 39 .

لسان **أبو عبيدة** الذي قال اللفف هو الثقل في اللسان عند الكلام ، ونجدها المشكلة اللسانية بكثرة عند مرضى التوحد أو الأطفال عند الخوف.[1]

5- اللجلجة :

- اللجلجة في اللغة مثل الفأفأة و التمتمة أي الترديد ، الاضطراب ، التكرار أما كما مشكلة نطقية فتعني التلعثم أيضا و هو تكرار الحرف الواحد عدة مرات متتالية على حساب الحرف الآتي بعده دون مبرر لذلك أي أن مقام الكلام ولا صيغته ولا طبيعته تسمح أو لها مصلحةفي هذا الترديد ، و هذا مثل قول : وردة **وووووووردة** أو مثلا : قول **قووووول،** أما عند الجاحظ فقد اكتفى بذكر البيت الشعري الذي نظن وفقا لبحثنا انه ينسب للطرماح :

لَيْسَ خَطِيبُ الْقَوْمِ بِاللَّجْلاَجِ **** ولاَ الذِيْ يَزْحَلُكَالْهِلْبَاجِ

- كذلك ذكّرنا بقول صدر عن بن سلام الجُماحي الذي جاء فيه باختصار أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

6 - تنافر الحروف: و تعني الجمع بين حروف لها نفس المخرج ما يؤدي الى تشويه النطق و عدم صحو صورته ، و قد ذكر لنا الجاحظ البيت المشهور الذي قيل عنه أنه من الجنّ لأنّه لم يستطع أحد ترديده ثلاثة مّرات بدون خلط أو لجلجة إلاّ و هو :

وقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ **** و لَيْسَ قُرْبَ قَبْرِ حَرْبِ قَبْرُ[2]

7 - أثر الأسنان :

- ذكر لنا الجاحظ معلومة مفيدة جدا قد تكون مجهولة لدى البعض ، فكانت أن الزنوج ينزعون أسنانهم فاستغرب **أبو عثمان** لهذا الحال مادفعه لسؤال أحدهم فكان **الفاشكار** فأكد أن هناك سببين الأول أنهم كانوا يأكلون لحم البشر وهذا أثناء الحرب و جلب الأسرى والثاني أرجعوه إلى أنّهم رؤوا أسنان و مقاطع الدواب والبهائم فخشوا أن تشبه ثناياهم ثناياها، وهي غاية في الشناعة فقرروا نزعها بدل حصول[3]هذا وأكد هذا الجزم بذكرهلقول سهل بن هارون الذي لم تعرف ولادته بالضبط توفي **سنة 830 م** هو مترجم و أديب،

[1] -مقالة: اضطرابات النطق ، أنواعها ، أسبابها ، منتدى ذوي الاحتياجات الخاصة 30 أفريل2010 بقلم سمو الاحساس
[2] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان بن بحر محبوب الجاحظ –تحقيق : هارون عبد السلام ص.69
[3] - ينظر المصدر نفسه: ص.58

فيلسوف عراقي و صف بالحكمة ، بما أنه عرف بالخل كذلك، ولد ببغداد و نشأ فيها ، تأثر بأسلوب ابن المقفع ما دفعه إلى التأليف على نفس الطريقة له في هذا **النمر والثعلب** ، أسلوبه دقيق ، سهل ، خال من المحسنات اللفظية ، وقوله : **لو عرف الزنجي فرط حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف و تكبل آلة البيان لما نزع ثناياه** ومعناه أن هارون يؤكد تحليل **الفاشكار** السابق معلقا على أنّ للأسنان فائدة و طبع على صورة الكلام ، و لو علم و أدرك الزنوج أهمية ذاك لما نزعوها من الأصل[1].

ـ و أنّه إذا أراد أن يقول لرجل أنه لجلاج قال خالق هذا و عمرو بن العاص واحد من هذا الكلام نفهم أنّ عمرو بن العاص كان رجلا غير بيِّن اللسان واضح البيان.[2]

8 ـ الحبس أو الحكلة :

ـ الحبسة لغة مأخوذة من **حبس** معناه أوقف ، ثبط أو أثقل ، و الحكلة لغة مأخوذة من الجذر الأصل : **حك** وورد في المقاييس أن الحاء والكاف تفيدان التقاء الشيئين مع استعلاء كل واحد على الآخر الثقل ، و مأخوذة كذلك من **حكل** : ومعناه الشيء الذي لا يبين ويقال أن **حكل** الشيء الذي لاينطق الحيوان و في لسانه حكلة أي عجمة ، ومنه نجدها وعلميا واصطلاحا تعني ما يصيب اللسان من ثقل و تمهل و تعقل أثناء التحدث وقد تنتج عن طول الصمت أو عدم الاختلاط بالآخرين ، وهي مشكلة نطقية متواجدة بكثرة عند الأطفال ناتجة عن خلل في التحكم العصبي لآلية الكلام ، ومنها ما ينتج عنه حذف بعض الحروف خاصة الحروف : **ج ، ش ، ف** ، **ر** ، **مثلا** نجد طفلا لديه ثقلا كلاميا فبدل قوله **ربيعبيع،** الثقل هنا أدى به إلى حذف بعض الحروف الكلمة تلك ، أما عند الجاحظ و من خلال كتابه فقد قدم لنا في هذا المقام مقولة مختلف المشاكل النطقية مع التعريف **: و يقال في لسانه عقلة، إذا تعقل عليه الكلام، و يقال في لسانه لكنة،**[3]**.**

إذا ادخل بعض من حروف العجم في حروف العرب"

10 ـ اللكنة : لغة مأخوذة من لكن و هي العي في اللسان ، ورجل الكن و امرأة لكناء ـ أما اصطلاحا فهي إدخال بعض حروف العجم في حروف العرب كما سلف أن رأينا ذكرها مع

---

[1] -مقاييس اللغة الأدبي ج 2 – حسين احمد بن فارس بن زكراء– تحقيق : عبد السلام هارون –دار الفكر العربي 1399 ه -1979 م [كتاب الحاء] ص 91

[2] -البيان و التبيين ج1 : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق عبد السلام هارون ص 40.

[3] -مقاييس اللغة ج 02 : لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكرياء– تحقيق هارون عبد السلام ص 26 – 27 .

الجاحظ مثال : قول **حرقي حدقي** ، واللكنة هي من المشكلات النطقية التي لا يمكن معالجتها لأنها طبيعية و فطرة قائمة في نفس القول ، أما عند الجاحظ فقد نقل لنا قولا يصب في مفهوم اللكنة و المقاطع الحرفية التي تكون فيها و اصلا إلى حكم استحالة شفاء المصاب بها حتى و لو قضى الدهر كله بين قبائل العرب و فصحائهم ذكر لنا مثالا : **زوق سورق.**[1]

2 ـ الدلالة عند الجاحظ :

ـ قبل التطرق للدلالة عند الجاحظ لا باس أن نعرج على بعض المحطات المفهومية لهذا العلم فلغة مشتق من **دل** أي أشار أو أحال أو أبان (1)، أما اصطلاحا فهو العلم الذي يعني بدارسة المعنى و هذا المفهوم هنا حديث الظهور مع القرن التاسع عشر مع الفرنسي **ميشال بريال** ، و قد ارتبطت دراسات هذا العالم في بادئ أمرها بالمجال الأدبي و لعل هذا ما نلمسه من خلال الدلالة عند الجاحظ لكن عرف مرحلة تطورية أخرجته من الإطار الأدبي إلى الإطار اللغوي و أعني باللغوي هنا اللساني ليتطور هذا العالم بحلول القرن العشرين أين ضم إلى مجالات عدة كالاجتماعية ، النفسية ،الإنسانية و كل ماله علاقة بالمعنى ، ومجال بحثه العلامات اللغوية أي الكلمة وتتبعها في السياق فالكلمة معدومة أن لم توظف في السياق وعلم الدلالة لا بدرس الكلمة خارجه أبدا[2] كذلك يختص العلامات الغير اللغوية التي تعتمد بالضرورة على الرموز و الإيحاءات وإعطاءها تأويلات ومعان عدة **إشارات المرور** فهي عبارة عن نظام ضوئي بألوانه الثلاث : الأحمر ،الأخضر ، الأصفر لكن إذ ما أردنا دراسة هذا النظام دلاليا فإننا نجد للون الأحمر معنى عبور السيارات ، والأخضر الراجلين وغيرها من الرموز و الدلالات التي تحمل معنى،[3]كذلك يقتصر هنا على الأصوات مثال : صوت الأنين دال على شدة الألم ، الصوت المرتبك على الخوف - إذاً فعلم الدلالة يهم بالكلمة داخل السياق و هذا الاهتمام يكون شاملا شتى النواحي.

ـ أما الدلالة عند الجاحظ فقد حددها بخمسة عناصر هي كالتالي:

---

[1] - ينظر: مقدمة في علمي الدلالة و التخاطب – د – محمد محمد يونس علي – دار الكتاب الجديد لبنان ط01. يونيو 2004 ص 13.

[2] - ينظر:علم الدلالة : تأليف كلود جرمان- ريمون لوبلون : ترجمة : نور الهدى لوشن / المكتب الجامعي الحديث ط..2006 ص 7-8 .

1 ـ **اللفظ:** حيث اعتبره الجاحظ من أهمّ أدوات البيان و قوامه الصوت الذي هو آلته وجوهره.[1]

2 ـ **الإشارة :** فكما يرى الجاحظ أنّ اللفظ و الإشارة شريكان ، فنعم الترجمان هي له وقد حدد لها عدة أنواع و أصناف مع الأقوال الدالة على جزمه ذاك منها : **الاشارة بالطرف والحاجب** ، أي العين فيذكر لنا الجاحظ هنا قول عنترة:

أشَارَتْ بِطَرَفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أهْلِهَا **** إشَارَةَ مَذْعُورٍ ولَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أنَّ الْحَاجِبَ قَالَ مَرْحَبًا **** و أهْلاً و سَهْلاً بِالحَبِيبِ المُتَيَّمِ

كذلك قول الشاعر :

العَيْنُ تُبْدِيْ الذِيْ فِيْ نَّفْسِ صَاحِبِهَا **** مِنْ ◌مَحَّبَةٍ أوْ بَغْضٍ إذَا كَانَا

والْعَيْنُ تَنْطِقُ و الأفْوَاهُ صَامِتَةًُ**** حَتَّى مِنْ ضَمِيرِ الْقَلْبِ تِبْيَانَا

ـ **الإشارة بالعيون:** كما سلف الذكر فهي آلة اللفظ، و به يوجد التأليف، و لن تكون حركات اللسان لفظا و لا كلاما موزونا منثورا إلاّ بظهور الصوت[2].

ـ **الإشارة باليد و الرّأس :** التي اعتبرها الجاحظ تتمة لحسن البيان باللسان وربما نجدها ظاهرة أكثر عند الخطباء ، فقد ذكرنا الجاحظ بعضا من الخطباء اشتهروا باستخدام هذا النوع من الإشارة و خير دليل ما ذكره لقصة **أبو شمر.**

3 ـ **الخط :** و نقل لنا الجاحظ في هذا المقام عدة آيات كريمة مدعمة لاعتقاده هذا منها : قوله. تعالى :"**اِقْرَأْ و رَبُّكَ الأكْرَمْ ، الذِيْ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَّ◌◌لمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**"، و قسم الله تبارك و تعالى بالقلم فقال عز وجل :"**نُ و الْقَلَمْ وَ مَايَسْطِرُونْ**"

ـ و لم يتوقف عند هذا الحد إنما ذكر لنا عدة أقوال مركز دورانها **القلم** من أهمها "**القلم احد اللسانين ، القلم أبقى أثرا و اللسان أكثر هدرا**"، وهذا يعني أن القلم هو من يحفظ ذاك الكلام و يدونه حتى تتناقله عدة أجيال فيما بعد ، و إن كان صاحب ذالك الكلام قد مات ، هنا تحضرني المقولة المشهورة : "**الكلمة أبقى عمرا من صاحبها**" كذلك نقل لنا قول آخر مفاده : "**اللِّسان مقصور على القريب الحاضر ، و مطلق في الشاهد والغائب،**

[1] -نظرية أبي عثمان عمرو بن بحر محبور الجاحظ –في النقد الأدبي للدكتور محمد بن عبد الغني المصري – دار مجدلاوي- عمان الأردن – الطبعة الأولى [1408 ه – 1987 م] ص 82

[2] -نظرية الشعر عند الجاحظ – للدكتورة : مريم محمد المجمعي – دار مجدلاوي – عمان – الأردن – الطبعة الأولى [2009-2010] ص 282

وهو للغابر الحائن ، مثله للقائم الراهن ..." ، أي أن القلم كتأشيرة سفر خاصة بالكلمة غير أنّ منه متباينة و مجتمعات و ثقافات و حضارات أخرى .

4 ـ دلالة العقد : و تدعى كذلك بالحساب أو العدد و قد استدل الجاحظ في بادئ الأمر بآيات قرآنية منها : **قوله تعالى : "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ، خَلَقَ الإنْسَانَ عَلَّمَهُ البَيَانَ الشَّمْسُ والْقَمَرُ بِحُسْبَانْ"** .

و يعود الجاحظ و يقر أن الحساب له منفعة كبيرة جدا في حياة العباد ، فلو لا الحساب في الدنيا لما فهم الناس الحساب في الآخرة ، و إنّ اجتماع هذه الدلالات أهمّ لتمام البيان والإفصاح و فساده من فسادها أو اختلالها .

5 ـ دلالة الحال: أو كما تدعى **بالنصبة** و يرى الجاحظ أنّها الحال الناطقة يغير اللفظ والمشيرة بغير اليد ، وذلك ظاهر في خلق السماوات ز الأرض ، و في كل صامت وناطق ، جامد و نام ، مقيم و طاعن ، زائد و ناقص ، و الصامت ناطق من جهة الدلالة والعجماء مُعْرَبة من جهة البرهان[1].

ـ إذاً هذا ما كانت تعنيه الدلالة عند الجاحظ، لنمر فيما يلي لاستعراض أهم محطات الاستطراد الواقعة في هذه القصية التي تعتبر من ابرز القضايا التي ذكرت في هذا المؤلف القيم.

3 ـ نماذج الاستطراد في قضية البيان و الدلالة :

ـ نرتئي استهلال التطرق لنماذج الاستطراد في قضية البيان و الدلالة بملاحظة منهجية ذكرها الجاحظ معللا سبب تأخيره للحديث عن مفهوم البيان و عناصره إلى الباب الثاني وذلك من خلال قوله : **"كان في الحق إن يكون هذا الباب في أول الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير"**، والتدبير معناه إستراتيجية ، طريقة ، ورغم انه حاول أن يكون منهجيا إلا انه لم يوفق في ذلك غالبا مما يبرر كثرة استطراداته التي هي موضوع دراستنا، ولا باس انه نتطرق إلى نماذج منها ما يتصل بعيوب البيان:

ـ أول استطراد اعترض طريقنا هو ماعالجه في قضية **العي و الحصر** مستشهدا بعدة أقوال سواء كانت مقولات ، أبيات شعرية ، إلى حين أن يستطرد هذه القضية على العموم

[1] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 79-80

إلى الخصوص وهذا من خلال ذكره لنا قصة **سيدنا موسى عليه السلام**[1] والعقد اللسانية التي يعانيها وهناك رابطة بين القضيتين هي **العي** ، ثم ليستطرد إلى قضية **البيان** بحد ذاته وهذا حين ينقل لنا آيات قرآنية و ردت فيه ، و التي تقر أنه نعمة وكيف أنّ القران الكريم مدحه بالإفصاح ثم يعرج بنا إلى استطراد آخر تمثل في ذكر أهم صفات قريش وكيف أنّ الله تعالى بين لنبيه و كتابه المنزل ، فكانوا ذي بلاغة المنطق و رجاحة الأحلام ، وكيف كان لهم النسق و استمالتهم للأسماع ، لقوله عز وجل : **"ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِيْ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا"** ، وهذه النقطة هنا هي ميلاد لاستطراد آخر دار حول قوم يحسنون القول يسيئون الفعل حيث ينقل لنا قول **لزهمان** لما سئل عن راية في قوم بن خزاعة وهب من قبائل العرب القديمة فكان راية أنهمّ قوم ميزته الأساسية الثرثرة و الأخذ و الرد في الكلام لكن بالمقابل فإن الجوع يكتسيهم من كل جانب و هذا ما يورد لنا أنهم قوم لم يعرفوا بالكرم التي اشتهر جل أقرانهم من قبائل العرب آنذاك.[2]

ـ و يصادفنا موضع استطرادي أخر وهذا لما يترك الجاحظ هذا الموضوع ويدخل في موضوع أخر الحديث و فائدته عند العرب وكيف أنهم جعلوه من القرى واشكال الضيافة وقد استشهد بعدة أبيات شعرية نأخذ منها مثلا:

لِحَافِيْ لِحَافُ الضَّيْفِ و البَيْتُ بَيْتُهُ **** و لَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

أحَدِّثُهُ إنَّ الحَدِيثَ مِنَ القِرَى **** و تَعْلَمُ نَفْسِي أنَّهُ سَوْفَ يَهْجَعُ

ـ و كل ما ذكر من الاستطرادات أنفا بينها علاقة ، إذ هناك رابطة تربط كل قضية بالقضية التي تلتها ، فالرابط بين قصة سيدنا موسى و مشكلته النطقية و معالجته لقضية البيان مع الاستدلال بآيات قرآنية هو لأنّ الأولى - القضية – معرقلة لحدوث الثانية – البيان – أمّا العلاقة بين قضية البيان وصفات قريش و مدى براعتهم في فن القول فكأنه – الجاحظ – أن يقول لنا أنّهم كانوا متمكنين من البيان ، و الرابط بين قضية صفات قريش و موضوع قوم يحسنون القول و يسيئون الفعل هو أنّ هذا الأخيرين أهمّ الصفات التي حوتها قريش ، أمّا فيما يخص الرابط بين موضوع حسن القول و إساءة الفعل وموضوع الحديث و فائدته عند العرب هي التعمق ، فقد أراد الجاحظ الغوص في ذكر أهمية القول

[1] - ينظر: المصدر نفسه ص4-5 [2]
[2] - البيان و التبيين ج1: لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 7 و 9 .

و الاسترسال في معالجة هذه القضية ، ليستطرد من موضوع الحديث وهذه المرة عائدا إلى ذكر صفات قريش خاصة ما جاء منها في القران الكريم ليستطرد عائدا إلى البيان و انه مركز دورانه هو الفهم و الإفهام ، و كلمّا كان اللّسان أبين كلمّا كان أحمدُ ،ليرجع و يستطرد كذلك راجعا إلى القضية الرئيسية الأولى – العيّ– و هذه المرة يذكر لنا ذكر من الآي الكريم حيث شبه الله تعالى فيه أهل هذا الضرب بالنساء و الولدان وهنا يستطرد الجاحظ ذاكرا لنا بيت شعري ضمّ بعض الأشياء التي تلبسها المرأة للزينة وكل هذا مربوط مع ما جاءت به الآية الكريمة ، و هناك همزة وصل قائمة بين الحديثين فكان قول نمر بن تولب[1].

ونجد استطراد لقضية – العيّ– و يعود لها الجاحظ بالتحديد في الجزء الثاني من هذا المؤلف و ليست عودة عابرة أو سطحية و إنّما يخصص لها بابا و حدها وكان هذا ابتدءا من الصفحة 134 ، حيث و إن كان سالفا قد قدم لنا تعريفا للعي فانه يدرج لنا في هذا الباب أقولا كانت عيية أو وصفت بالعي منها نأخذ : قول عثمان بن الحكم : أبقاك الله وأطال بقاءك و مد في عمرك ، فكما نرى هذه المقولة أنّ عثمان بن الحكم تناول ثلاثة جمل مكونة لهذه العبارة صبت في نفس المعنى ، فإذا قد أطال الحديث دون استجواب الموضوع تلك الإطالة فكان قوله بالتالي عييا أيّ دون أهمية ، فكان المفروض الإتيان بجملة واحدة فقط من تلك الجمل الثلاث تفي بالغرض فيكفي مثلا قوله : "أبقاك الله . وكذلك نجد قول أبو إدريس السمان : و انتم فلاحيًّا الله و جهكم إلاّ بالسلام و انتم فلا بيتكم الله إلاّ بالخير"؛ فكما نلاحظ أن السمان قد زاد العبارة تعقيدا دون وضوح المعنى مع أنّ الموقف لا يتطلب هذا التعقيد و اللف و الدوران فالأصح قوله صباح الخير أو صبحكم الله بالخير وأمساكم به، فتكون العبارة هنا واضحة و مختصرة و معبرة و هذه طبيعة في التحية ، فمن ميزاتها الاختصار ، الوضوح و البساطة ، وينقل لنا القول التالي:

تزعم بني تميم أنّ صبرة شيمان قال في حرب مسعود و الأحنف : أن جاء حتات جئتوإن جاء الأحنف جئت و إن جاء جارية جئت ، وان جاؤوا جئنا ، و إن لم يجيئوا لم نجيء.

---

[1] –البيان والتبيين لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق:هارون عبد السلام ص 10-11-12.

ـ فهنا نحن نرى كم أنّ هذا القول عي دون معنى أو قصد فقد أكثر القائل من لفظة جئت، جئنا ، جاؤوا ، فكأنّه أحب الدوران في الموضوع وكان فقط يكرر ألفاظ فحسب دون:

حرصه على إيصال معنى مفيد للسامع[1]

ـ نماذج للاستطرادات في قضية واصل بن عطاء و لثغة

ـ أوّل استطراد نلتقي به هنا هو حين يحكي لنا قصة واصل وكيف أنّه أدرك مشكلته النطقية تلك ليدخل فيها قصة سيدنا موسى عليه السلام و التعرف للمشكلة التي اعترت لسانه، وبين هذا و داك صلة تمثلت في أنّ كليهما له عقدة لسانية ، ثم يستطرد إلى ذكر أنواع كاللثغة و ماهي الحروف التي تكون فيها ، ليستطرد مرة أخرى عارضا لنا لثغة محمد بن شبيب و أيّ الحروف كانت فيه ، ثم يستطرد عائدا إلى لبّ الموضوع إلاّ وهو قضية لثغة واصل بن عطاء وكيف كان قبيح اللثغة وشنيعها وانه كان طويل العنق، لينحرف بذاك من معالجته لقضية اللثغة مع واصل إلى ذكر صفاته عن طريق هجائه من عدة شعراء أهمّهم : بشّار بن برد ، ليستطرد كذلك راجعا إلى اللثغة و يورد لنا أقوالا بررت و بينت لثغة واصل كتجنبه لعدة ألفاظ حوت الراء في كلامه قصد عدم إظهار تلك العقدة التي كانت في لسانه ، مستطردا بهذا إلى قضية تسمية القمح بالبر ، مع نقله لنا عدة أقوال حملت لفظة بُرّ بدل قمح و أنّها هي الأصح و الآبين و مثال هذا لا أدري إن أطعمت نازلهم ، قرف الحي وعندي البر مكنوز ، و هناك رابطة بين القضيتين اذ أنّ القول الذي ذكره لنا في شان بيان لثغة وصال وكيف جاء فيه أن تجنّب لفظ بر لما له مشكلة في نطقها و استبدله بلفظة القمح و لم تكن لهجته تحوي هذا ، إذ أنّ لهجته كانت تنادي بلفظة بر والقمح من لهجة شامية و الحنطة لهجة كوفية ، ليورد لنا استطراد له و هذه المرة بذكر اختلافات بين اللهجات : الأمصار ، أهل الكوفة ، البصرة الشام ، ليتعمق منه أكثر في الخلاف بين لغة البصرة أفصح من لغة أهل مكة ، وتجلى هذا حين نقل لنا قول : سعيد عبد الكريم بن روح الذي نقل عن قول أهل مكة لمحمد بن المناذرة ولوجا إلى عمق هذه القضية و ذاك بإيراده ألفاظ و تباين تسميتها بين أهل الكوفة و البصرة ، مستطردا بهذا و ذاك الى

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج2 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص134-135

قضية استخفاف ناس بألفاظ و استعمالهم لأخرى ، و تحدث في هذا الحديث على ضرورة اختيار الألفاظ و ملائمتها المعنى و أنّ كثيرا من ألفاظ القران الكريم أتت مقترنة من أمثلة الجوع و الخوف المهاجرون والأنصار، الصلاة و الزكاة ...،[1] ليستطرد عائدا إلى قضية واصل بن[2]عطاءومواقع لثغته مع الاستدلال عليها بأقوال و أبيات منها مثلا حيت حين ذكر لنا قول عدنان البري لما سأله الجاحظ : كيف كان واصل يصنع في العدد ، وكيف كان يصنع في عشرة وعشرين وأربعين ، وكيف كان يصنع بالقمر والبدر ويوم الأربعاء، وشهر رمضان وكيف بمحرم وصفر و ربيع الأوّل و الآخر ، وجمادى الأخر ورجب؟ فقال له : مالي فيه أقوال إلاّ ماقال صفوان :

مُلَقَّنٌ مُلْهَمُ فِيهَا يُحَاوِلُهُ **** جَّ͏ُ͏ُم خَوَاطِرُهُ حَوَابُ أفَاقِ[3]

ـ ثم يعود و دائما و فق طريقه الاستطرادي إلى ذكر أبيات و أقوال صب في مجملها في قضية واصل بن عطاء وكونه طويل العنق[4] واستطراده هنا لم يكن تكرار و إنّما تتمة لما سلف ذكر و تدعيم هذا الموقف بعديد من الدلائل و الشواهد الشعرية ليستطرد و هذا من قصة واصل بن عطاء مع الهجاء و المدح ، الموجه له من قبل عدة شعراء أبرزهم بشار بن برد ، ليكون هذا الأخير نقطة هذا الاستطراد و نقطة تحوله من موصوع واصل إلى موضوع هجاء بشار بن برد و أخويه مع إتيانه بعدة أقوال دالة على هذا من أهمّها :

لَقَدْ وَلَدَتْ أُمَّ الأكْيِمَةَ أَعْرَجًا **** و آخَرَ مَقْطُوعَ الْقَفَا نَاقِصُ الْعَضُدِ

واسترسل في هذا الهجاء مدرجا لنا عدة أبيات شعرية غاية في الطرافة رغم عرض الهجاء الكاريكاتيري الذي تضمنته[5]، و ليستطرد تارة أخرى راجعا لإتمام قضية واصل و تلقيبه بالغزال، وهذه المرة أتانا بأقوال دافعت عنه و قابلت هذا الوصف بالنفي والنكران وأثناء ذكره للآراء[6] التي دافعت عن واصل فإنّنا نلتمس استطرادا جزئيا قصيرا و إن صح القول مؤقت تمثل في تعرفه لتسمية هشام الدستوائي ، وذكر لنا بالتفصيل الممل بسبب هذه التسمية ، وسمى كذلك لان الإباضية كانت تبعث له بعضا من صداقتها ثياتا دستوائية.

[1] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 14-15-16 .
[2] -المصدر نفسه ص 17 .
[3] –المضدر نفسه ص 20.
[3] -المصدر نفسه ص 22
[4] -المصدر نفسه ص 30 ص 33

ـ ويواصل هذا الاستطراد مستشهدا بعدة أقوال صبت في هذا الموضوع و أبيات عدة:

أنّا وَجَدْنَا الدِّسْتِوَائِيِنَا **** الصَّائِمِينَ الْمُتَعَبِّدِينَ

ـ ليعود مستطردا إلى قضية واصل و تسميته بالغزال من قبل المدافعين عنه فقال سمي كذلك لأنّه كان يطيل الجلوس في سوق الغزّالين، لا أكثر ولا اقل نافٍ بذلك كلّ الأقوال السابقة القائلة عنه وصف بهذه الصفة لطول عنقه، وهكذا فإنّنا نلتمس موضع جدلي للجاحظ هنا:[1] ـ نماذج للاستطراد في قضية اللثغة:

يبتدئ الجاحظ حديثه عن اللثغة وهذا بالتعرف لحروفها التي سبق ثم يواصل كلامه دون أي استطراد مؤقتا فقط[2]

ـ أول استطراد هو تركه لقضية اللثغة كعيب من عيوب البيان إلى عيوب للبيان أخرى وشرحها بالتفصيل والبرهنة عليها و من هذه العيوب : الفأفأة، التمتمة اللفف اللجلجة، الحبسة، الحُكْلة... ،، و أثناء تعرضه للنحنحة و السعال ليستطرد حينئذ وهذا بذكر أهمّ خطباء الشعراء على العموم و الإيضاح فقط ، فالجاحظ لم يذكر لنا الخطباء الشعراء من عُرفوا هذه المشكلة : النحنحة و السعال ، بل جاء أشهر الخطباء الشعراء و أبرعهم وهنا يكمن مظهر الاستطراد في هذه النقطة إذ يقفو بنا من معالجة عيب نطقي إلى أشهر الخطباء و تصنيفهم ، وهذا ما سنتناوله لاحقا إن شاء الله حين نعالج الاستطرادات في قضية الخطابة ، المهمّ يواصل الجاحظ هذا الاستطراد[3]انطلاقا من اللثغة دون إتمامها مرورا بعيوب اللسان الأخرى وصولا إلى عودته لشرح اللثغة و الاستدلال عليها بعدة أقوال من أبرزها ذكره لقول بن الأعرابي وهو محمد بن زياد أبو عبد الله بن الأعرابي صاحب اللغة توفي بسامراء سنة المائتين والواحد والثلاثين للهجرة ، كان إليه المنتهي في معرفة لسان العرب، عاش قرابة الثمانين سنة[4] وبالرجوع إلى قوله في اللثغة اذ روى لنا رواية الرجل الذي طلّق امرأته بعد أن عرف أنها لثغاء و هذا مخافة منه أن تنجب له ولدا ألثغ هذا العيب النطقي يعبر شيء مخجول منه ، و للإشارة فإنّنا نرى أنّ الاستطراد في قضية اللثغة كان الأطول بين كل الاستطرادات المذكرة آنفا، أو التي ستذكر لاحقا حيث

[1] - البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 33.
[2] -المصدر نفسه ص 38-39 .
[3] **-المصدر نفسه ص 45-46 .**
[4] - علماء العرب و المسلمين و أعلامهم : د – مصطفى الجيوسي ، دار أسامة ، عمان ، الأردن ط 2005 ص115

امتدت من الصفحة الرابعة و الخمسين إلى غاية الصفحة الثمانية والستين، وما يبرأ أن يعود إلى القضية الرئيسية حتى يستطرد مرة أخرى و هذا على اثر ذكره كذلك لقول ابن الأعرابي المذكر أو الملخص أعلاه ، يتعمق فيه أكثر ناقلا لنا قول ثانٍ لابن الأعرابي وما ضمه من مظاهر تشويه صورة البيان فكان :

أُسْكُتْ و لاَ تَنْطِقْ فَأَنْتَ حَبْحَابُ **** كُلُّكَ ذُو عَيْبٍ و أَنْتَ عَيَّابُ[1]

و الحبحاب هي مشكلة نطقية سلف أن ذكرناها ، و يواصل الجاحظ استطراداته وكل كلمة هي كخيط شبكي حيكت به عدة قضايا مختلفة متداخلة فيما بينها .

ـ نماذج الاستطرادات في اللّكنة :

ـ لم نعثر على حسب قراءتنا لهذا المؤلف في هذا الموضوع خاصة سوى على موضوعين ورد فيهما الاستطراد فأولهما حين تكلم عن اللكنة و تعريفها ليستطرد منها إلى قضية أبو دبوبة الزنجي ، وهو نموذج مشهور بتقليد أصوات الحيوانات خاصة الحمير، والجاحظ يسرد لنا كيف أنه يتوجه إلى دكاكين التجار المسؤولين عن كراء الحمير للناس فيبدأ بالنهيق كي يطرد جميع الحمير الموجودة هناك ، ثم يستطرد من هذا داخلا في التعرض للثغة خاصة التي توجد عند الأطفال و اختلافها مع لثغة الكبار والكهول[2] ويعود ثانية إلى موضوع اللكنة و تعرض لعدة أسماء اشتهرت بها بالرغم ومن كل هذا إلاّ أنّها كانت لها أعمال و أقوال غاية في الإبداع .

ـ الاستطرادات في قضية ماهية البيان :

ـ أوّلها كان عبارة عن جملة توسطت أو كانت عبارة عن مقطع توضيحي توسط أدوات البيان الخمس و تعريفه آلا وهو تبريره تأخيره لهذا الباب لنلتقي باستطراد آخر و هذا حين عالج لنا أدوات الدلالة الخمس أيّ الإشارة بعد تعريفها و شرحها ليدخل في باقي العناصر : العقد ، الخط ، النصبة ...، مرورا باللفظ الحسن و اللفظ السيئ داخلا بذلك إلى باب البلاغة و تعريفها عند كل من : الروم ، اليونان ، الهند ، الفرس ، وصولا بمفهومها عند سها بن هارون ليعود و يتحدث أو ليكمل لنا حديثه عن الدلالة بالإشارة وتجسيد هذا بالخصوص حين نقل لنا رواية أبو شمر عن معمر أبي الأشعث الذي قال **"وكان أبو شمر**

[1] - ينظر : البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ، تحقيق هارون عبد السلام ص 57 .
[2] -جريدة العالم مقالة ، الكتابة بالشفاه- رياض كاظم ، جريدة العالم –العدد 1247 سنة 1-1-2010 . العراق– دار العلم

إذا نازع لم يحرك يديه و لا منكبيه ..." ،[1] لنجد استطراد له في موقف آخر حيث تحدث عن النصبة أو الحال و تعريفها ليتركها ويغوص في ضرورة تخير اللفظ وملائمته للمعنى دون الإطالة فيه ، فانطبقت عليه عبارة خبر الكلام ما قل ودل والقرينة الرابطة بين قضية النصبة وهذه النقطة تمثلت في كلمة اللفظ وعرّف لنا النصبة فقال عنها أنّها الحال الناطقة بغير اللفظ ليستدل بعدة شواهد شعرية عليها ليعود ويتطرق للفظ و ما قيل فيه، وأيّ الألفاظ هي الأحسن آتٍ بقول علي رضي الله عنه **قيمة كل امرئ ما يحسن،** ليستطرد راجعا بهذا القضية الحال و فوائده البيانية .

ـ واستطرادا آخر لمّا ذكر لنا قصة ابن عباس و كيف كان متمكّنًا من العلم إذ سأله أنّى لك هذا العلم ؟ قال : قلب عقول و لسان سؤول [2] و جاءنا بعده أقول أثبتت بلاغته وسلطته اللسانية، ثم استطرد ذاكرا لنا صفات اللفظ السيئ الفاسد وكيف انه اقرب للقلب من اللفظ الصالح و هذا يظهر من خلال مقطع من مقولته هذه : ... و لو جالست الحمال و النّوْكى والسفهاء و الحمقى شهرا فقط لم تنق من أوضار كلامهم ، وخبال معانيهم بمجالسة أهل البيان و العقل دهرا ، لان الفساد أسرع إلى الناس ....، مواصلا بجملة من المقولات ت الحكيمة وفي هذا انتقينا منها عل سبيل المثال مقولة لمحمد بن علي بن عبد الله بن عباس، **"كفاك من علم الدين أن تعرف مالا يسع جهله ، وكفاك علم الأدب أن تروي الشاهد والمثل "**(2)، و معناه أن تأخذ من الدين ما يجعلك تعي جوابه واتجاهات و أهمّ ما يحثُّ عليه دينك واترك الجدال و الباقي المتولد عن فرق أو أحزاب وخذ من الأدب زادا تتزود به في كلامك و آراءك و اترك الباقي الذي لا يعنيك أو لا يفيدك أو فيه زيادة أو تفلسف، ولان الزيادة و الطمع في شيء منبع ازرع المخالطة وتغطية صفو العكر وبالتالي تصبح جاهلا أي طريق تتجه أو أي اتجاه تتبع ، ثم من أين أتت كل هذه التشابكات.

---

[1] -البيان و التبيين ج1لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ، تحقيق هارون عبد السلام ص75-88-91 .
[2] -المصدر نفسه ص 81-83-84 .

ـ كذلك يحضرنا في هذا القول، ما نقله لنا الجاحظ في مؤلفه فكان قول بعض الحكماء حين قيل له : متى يكون الأدب شرا من عدمه ؟ قال: "إذا كثر الأدب ونقصت القريحة "، قول محمد بن علي بن عبد الله بن عباس[1].

ـ هنا قد أتممنا إحصائنا لمواضع الاستطرادات في قضية البيان و الدلالة ، فاسحين المجال للنقطة التالية التي جسدت و اكتملت بها صورة الاستطرادات في مؤلف الجاحظ هذا .

[1] - البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ، تحقيق هارون عبد السلام ص 86 .

المبحث الثاني: قضية البلاغة:

ـ البلاغة في اللغة مأخوذة من بلغ يبلغ بلوغا، أي الانتهاء والوصول، وبالمعنى الاصطلاحي كلام بليغ أي وصل بأدقه إلى السامع أو القارئ ، ورجل بليغ أي متمكن من الفصاحة متحكما في أصول الكلام و ضرب صياغته وكلامه دائما يلقى صدى فالبلاغة بمفهومها الاصطلاحي هي العلم الذي يدرس القول ويقف على حدوده وشده تأثيره والتلقي ويقتضي لزوما الفصاحة التمكن اللغوي بالإضافة إلى الحكمة والقدرة على ضبط المفردات و إيرادها المكان المناسب لها،[1] فذا تحققت هذه الشروط أصبح الكلام من كلاما عادي إلى كلام بليغ ، الغرض منه أبعاد اللبس والغموض وإيضاح المعنى والمفهوم، والدرس البلاغي ككل نجد جذوره تمتد منذ العصر الجاهلي، ليغذى عن طريق الإسلام وبنزول القران الكريم وما فيه من بلاغة و إعجاز، الذي تتغذى منه جل الدراسات البلاغية و منطلقا لمسيرتها تلك ، إذا وكما سبق أن توصلنا إليه أنّ البلاغة والفصاحة جزءان لا يتجزءان إذا غابت الفصاحة فلا تنظر البلاغة ،أبدا،[2] وقد قسمت البلاغة من قبل علمائها إلى ثلاثة علوم : علم المعاني ، البيان ، البديع ، فكل من هذه العلوم منح للدراسة الأدبية جمالا بلاغيا وكسبتها ذوقا ، لهذا أحب التشجيع على حفظ القران الكريم لأنهما موجدا البلاغة من الأساس[3] وجاءت بلاغتنا العربية ممثلة في إعلام عدة فلا يكاد زمن يمضي إلا وظهرت فيه جملة من البلاغيين من أهمهم نذكر

[1] -البلاغة انظر : البلاغة العربية : لأبي سعد سليمان حمودة – دار المعرفة الجامعية –الإسكندرية – مصر –ط 2005 – ص 7-8.
[2] -أنظر : البحث عند العرب : تأصيل و تقييم – شفيع السيد –دار الفكر العربي –القاهرة – مصر (دت)
[3] -البلاغة العربية : تأصيل و تجديد-مصطفى الصاوي الجو يني –دار المعارف الإسكندرية –مصر-ط2002-ص 5

الجاحظ : البيان و التبيين ، |أبو الهلال العسكري : الصناعتين ، ابن المعتز : البديع المرد الكامل ، عبد القادر الجرجاني ... الخ[1]

1- البلاغة عند الجاحظ :

فكان الجاحظ في هذه النقطة ناقلا نقل لنا عدة أقوال وتعريفات تخص البلاغة و قد اختلفت هذه التعريفات على اختلاف أقوامها و أصحابها وضعها فقد عرفها لنا عند الهند، وصرح الدلالة وأحسن الإشارة وانتهاز الفرصة كذلك تطرق لها عند الفرص وهي تعني معرفة الفصل من الوصل أيضا عند الروم والإعراب كان بحث المقفع وأعلام البلغاء كالعتّابي ، سهل بن هارون ...[2] ، ولم يتوقف عند هذا الحد إنما ذكر لنا في كتابه البيان والتبيين صحيفة لبشر بن المختمر و هو سهل الهلالي مؤسس فرع لاعتزال في بغداد، أزهر في أيام هارون الرشيد ، تأثر بأبو بكر الأصم أبو علي الاسواري، تأثر به ثُمامة بن الشرس، و أحمد داؤود و الجاحظ كذلك توفي سنة المائتين والعشرة هجري، مايقابل الثمان مائة و خمسة و عشرون للميلاد[3] ، التي يقنن فيها للبلاغة ويحفظ قواعدها وهذا بعد أن مر على احد المعلمين و رأى طريقة تعليمه لهم .

- و بالإضافة إلى هذا كله فان المؤلف ككل جاء مصبوغ صبغة بلاغية بحتة ، الذي لا تمر مرحلة أو موضوع إلاّ ذكر فيه الجاحظ البلاغة أو إحدى لوازمها و يكفينا دلالة كأن تحدث عن تنافر الحروف الذي اعتبره مشوها للفصاحة و عليه انعدام البلاغة كذلك فالأسنان دور في تجسيد الصور البلاغية وتطرق هنا بالتحديد إلى قول سهل بن هارون فيها يخص نزع الزنوج أسنانهم و هذا ما رأيناه سابقا ، كذلك لما عرض لنا مقتضى الحال أي لكل مقام مقال و تحدثه عن الإيجاز و الإطناب و المشكلة البديعية

[1] -البلاغة :لأبي العباس محمد بن يزيد المبرد –تحقيق.رمضان عبد التواب – مكتبة الثقافة الدينية القاهرة –مصر – ط02 – 1405 ه -1985 م – ص 4 .
[2] -أنظر: البيان و التبيين : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – ص 68 .
[3] -من الموسوعة الحرة :ويكيبيديا .

كل هذا مع الأمثلة سواء من القران أو من الشعر لم نذكرها لعدم تناسب الموضوعو طلبا للاختصار ولكي لا يختلط الفهم على قارئ هذه السطور.[1]

ـ مواضع الاستطرادات في قضية البلاغة :

ـ أول استطراد هنا هو حين يخرج من مفهوم البلاغة ليدخل أو يعود إن صح القول إلى الحديث عن الإشارة وهذا من خلال إيراده لقوا أبو شمر معمر الأشعث و هذا ماتعرضنا له آنفا في معالجتنا للاستطرادات في قضية البيان فها نحن أمام تشابك الاستطرادات عند الجاحظ و تجنبا لولوج تكرار في دراستنا هذه حاولنا على قد المستطاع العرض السطحي لعدة قضايا سلف ذكرها من قبل[2].

ـ ثم يعود إلى مفهوم البلاغة عند الهند وهناك رابط آلا و هو أنّ هذا المفهوم نقله معمر بن الأشعث في المثال المذكر سابقا، واستطراد أخر يظهر من خلال نقل الجاحظ جملة من أقوال إبراهيم بن هانئ و بالتحديد في كلامه عن تمام آلة القصص حيث ذكر لنا من أقوال ومن تمام آلة السؤدد أن يكون السيد ثقل ، عظيم الرّأس ...، ليستطرد على إثره أتيا بقول شبيب بن شيبة الخطيب حين قال لبعض فتيات بتي مقفر و الله مامطلق مطل الفرسانولا فتقت فتق السادة . وقال الشاعر :

فَقَبَّلْتُ رَّأْسًا لَمْيَكُنْ رَّأْسَ سَيِّدِ **** وَكَفَا كِفَ الْعِنَبِ أَوْ هِيَ أَحْقَرُ .

ليتابع أبو عثمان مساره ليعود إلى إكمال جملة مقولات إبراهيم هانئ ليستطرد هنا بالتحديد لما عالج لنا قول إبراهيم هانئ و هذه المرة في تمام آلة صاحب الحرس و الذي جاء في مجمل قوله أن يكون قطريا ابيض اللحية و غيرها وهنا خضر للجاحظ قول إبراهيم السِّندي الذي قال لما دخل العماني الراجز على الخليفة الرشيد يعرض إنشاد له بعضا من الشعر ، وكانت عليه طويلة و خفا ساذج ، فقال له الرشيد على حسي ما أتانا به الجاحظ : إياك أن تنشدني إلا و عليك عمامة عظيمة الكور وخقاند مالقان[3]

ـ إذ نلتمس و بصفة مفاجئة لهذا الاستطراد لذلك ذكرناه متأخرا ، و كان الاجدر ان يذكر مع من سبقه المهم يظهر هذا الاستطراد من خلال تحدثه عن مفهوم البلاغة عند

---

[1] ينظر : البيان و التبيينج1 - لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام – ص 9 .
[2] - ينظر: المصدر نفسه ص 91 .
[3] - ينظر: المصدر نفسه : ص 93-94-95.

العرب[1]، ليترك هذه القضية مارا عبر جملة من القضايا اندرجت تحت لواء تراجم البلغاء وما تحمله من استطرادات كثيرة سلف التعرض لها ، ليعود و يكمل لنا مفهوم البلاغة عند العرب وبالتحديد عند العتّابي ، وذلك حين سئل مالبلاغة فقال : كل من أوهمك حاجته من غير إعادة أو حسبة ولا استعانة فهو بليغ ، وعند عمر بن عبيد كذلك سئل عن ماهيتها فأجاب قائلا : **"مابلغ بك الجنة و عدل بك عن النار ..."**[2]، ليستطرد بعدها و فق جملة من أهم وانطق الناس وكل هذا انطلاقا منقصة عمرو بن عبيد ليعود و ينهي في الأخير كلامه الأول أي مفهوم البلاغة عند العرب، وهذه المرة على وجه التحديد عند ابن المقفع.

ـ و هكذا تنتهي جولة بحثنا عن استطرادات أبي عثمان في هذا النطاق، و للإشارة فقط فلقد تناولنا بعضها دون غيرها و هذا تجنبا للإطناب في هذا البحث.

ـ كذلك مظهرا استطراديا أخر و ذلك حين انطلق من البلاغة عند العرب ليجول و يدور حول مفهومها عند الهند مرورا أثناء هذا بمقولات إبراهيم بن هانئ ليعود إلى قضيته الأولى بعد كل هذا أي العودة إلى مفهوم البلاغة عند العرب ذاكرا مفهومها عند معاوية بن أبي سفيان و نلتمس وبصورة مفاجئة تركه للحديث عن مفهومها داخلا إلى تراجم البلغاء و ماتحمله من استطرادات كثيرة سلف التعرض لها ليعود و يكمل لنا مفهوم البلاغة عند العرب بالتحديد عند كل من العتَّابي حين سئل ماالبلاغة ؟ فأجابه في مجمل قوله أنها الإفهام دون إعادة الكلام أو تشويهه بأحد عيوبه المتعارف عليه آنفاليستطرد بعد ذلك وفق جملة من أهم و انطق الناس و كل هذا انطلاقا من القضية السابقة، ليعود و ينهي كلامه بمفهوم البلاغة و هذه المرة عند ابن المقفع وهو كاتب ومترجم كان في العصر العباسي من أهم كتبه : السفاح و المنصور ، أما ترجماته فأبرزها : كليلة ودمنة من الهندية إلى العربية ، كان رفيقا و صديقا لعبد الحميد قد تعرفنا عليه في محطات سابقة و تأثرنا به تأثرا شديدا توفي ابن المقفع عام المائتين واثنين و أربعين للهجرة[3].

[1] -البيان و التبيين ج1 : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق هارون عبد السلام ص 113.
[2] -المصدر نفسه : ص 114-115 .
[3] -المعجم المفصّل في الأدب ج2 ـ لد. محمد التو ينجي ص 604

ـ نماذج الاستطرادات في تراجم البلغاء :

ـ كذالك مظهرا استطراديا آخر و ذلك حيث انطلق من البلاغة عند العرب ليجول ويدور في مفهومها **عند الهند** مرورا أثناء هذا بمقولات **إبراهيم بن هانئ** ليعود إلى القضية الأولى بعد كل هذا أي العودة إلى **مفهوم البلاغة عند العرب** ذاكرا لنا هنا مفهومها عند **معاوية بن أبي سفيان .**

ـ نماذج الاستطرادات في تراجم البلغاء :

ـ استطرد أبو عثمان هنا حين جاءنا بقضية البليغ : **اياس بن معاوية** الذي القي قولا وسأل بعدها الناس إن أعجبكم أم لا ، فأجابوه بنعم ، فقال على إثرها : فانا أحق بان أعجب بقولي، من هنا أطلق الجاحظ العناء لاستطراده داخلا إلى موضوع **العجب** والتعريف به ثم يعود لإكمال الحديث عن بعض المواقف الحياتية التي اعترضت **معاوية بن إياس** ليستطرد عندها و ذلك بذكر قصة **ربيعة الرأي** ، و الرابطة بين كلتا القضيتين هي كثرة الكلام الذي عرف بها كلا من **إياس و ربيعة الرأي**[1]، كذلك نلمس استطرادا له و هذا لما تطرق لقصة **الحسن بن سهل** ليمر بعدها إلى ذكر قصة **علي بن هشام** الذي كان لا يسكت ، وربما الحديث هذا تابع لما جاء سابقا في كل من[2] قصة **إياس و ربيعة** أمّا ثاني الاستطراد المتمثل في ذكره لقولين مفادهما أن لا تُسْمِعْ كلامك إلاّ للذي يستحقه فكان منها: "**حدثني مهدي بن ميمون** قال : **حدثنا غيلان بن جرير** قال : **كان مطرف بن عبد الله** يقول **لا تطعم طعامك من لا يشتهيه** يقول : **لا تقبل بحديثك على ما لا يقبل عليه بوجهه"** ، و يستطرد حين ينقل لنا قصة **ابن السماك** وكيف انه اشتهر بترديد الكلام ليترك القصة هنا و إيراده كلام بشأن إعادة الكلام وفيه نقل عن

[1] -البيان و التبيين ج1: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق د- علي ابو ملحم ص 98-100
[2] -المصدر نفسه ص 102.

: **سفيان بن عينية عن الرهوي**

قال : "**إعادة الحديث اشد من نقل الصخر**"[1]، ليعفي في نهاية المطاف رأيه الخاص الذي يقول فيه أنه كان يردد كلامه.

ـ وبهذا القدر فإنّنا نصل إلى طوي ثنايا هذا المبحث مكمّلين سياجه الكلّي مع تجّلي المبحث التّالي ومن أهمّ ما لاحظناه من خلال خوضنا فيه هو أنّ معظم استطرادات الجاحظ وردت مرتبطة منسجمة منحت الوحدة و التكاثف و الانسجام للطريقة التأليفية الجاحظية البحتة، كما سنكتشف خبايا أخرى تخصّ هذا المنهج من خلال المبحث الموالي.

---

[1] - ينظر: البيان والتبيين ج1لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق:عبد السلام هارون ص 104-105.

ـ المبحث الثالث: قضية الخطابة:

ـ معنى الحطابة بصفة أعمّ مشتقة من **خطب** تفيد الطلب فنقول خطب فلان فلانة إذ طلبها من والدها لنفسه، أما إذا تعلقت بالقول فتعني الإلقاء، فنقول خطب رجل خطبة أي القي خطبة ، لهذا فهي تعني اصطلاحيا أنها علم و فن،[1] فن لما لها من جمالات و إبداع في القول إضافة إلى الهيبة و الثقة في النفس فأنت لا ترى مترددا أو مضطربا يخطب بين الناس فلا يقوم أولا يتبع هذا الفن إلا ذويه من أصحاب الجرأة هذا ما نعنيه بكلمة أو كون الخطابة فن كذلك لاحتوائها على محسنات لفظية ، وتعابير تأثيرية لها صلة مباشرة بالعاطفة و الوجدان ، أما كونها علما فنظرا لأنها تقام على قواعد و قوانين ، فهي تعرف أي تعرض على الدارس طرق التأثير ، وان ما رجعنا إلى إطارها الزمني فنجدها ضاربة في الجذور اليونانية خاصة ما جاء به **أرسطو** في كتابه- **فن الخطابة -** الذي ترجم نواحي القرن الثالث هجري ، فالخطابة عند أرسطو حذت حذوا فلسفيا منطقيا، وعليه فقد كان اليونان أول من أنشأ هذا العلم ووضعوا قواعده الأولى و كثيرا ما ترد الخطابة مردا نفسيا لان غايتها الأساسية هي التأثير في السامع و جذب انتباهه، وكي يحصل هذا على الخطيب أن يكون ملما بعلم النفس لوقفة الخطابة علم على حدودها و تعلقه بها و بطابعها هذا من جهة أما من جهة الخطيب فنجد أن علم النفس يجب أن ينطوي عليه كذلك وهذا بإدراكه كيفية الوصول إلى نفس وذهنية السامع ، ولا تتم هذه الخطوة إلا إذا أدرك نفسيته وطبيعته و أحسن الإدراك ففهمها كي يحللها بشكل صحيح منطقي، والخطابة هي اشد الأنواع التزاما لأنها تهدف إلى التأثير و هذا وحده صعب المراس، كما اعتبرت شريكة السلاح الخطب الحربية تنبني أسسها على العاطفة، الخيال، على ألا يكون مبالغا فيه والمنطق الذي يجعل السامع و يوهمه بان الخطيب أو الخطبة تمسه وتعبر عنه هو بالذات دون غيره.[2]

[1] - ينظر : الخطابة ، أصولها ، تاريخها ، في أزهر عصورها عند العرب .محمد أبو زهرة دار الفكر العربي .مصر- دت- ص 7-9 .

[2] -ينظر : فن الخطابة و تطوره عند العرب – إيليا حاوي – دار الثقافة بيروت – ص 4 .

الخطابة عند الجاحظ :

ـ قد تطرق الجاحظ للخطابة في كتابه هذا من كل النواحي بذكر صفاتها ، كذلك صفات الخطيب و الهيئة التي يكون عليها فنجده يقول فيها: **"رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة ، وجناحاها رواية الكلام و حليها الأعراب وبهاؤها تخير الألفاظ المحبة المقرونة بقلة الإكراه"**[1] فهاهنا يقنن الجاحظ للخطابة أن صح القول من حيث شكلها و مضمونها فيؤكد أن أساسها الطبع أي هي موجودة بالفطرة لكن على الخطيب أن ينميه بحساسة ذوقه الجمالي ، و يضع رواية الكلام أي كيفية سرده مع اختيار الألفاظ المناسبة لذلك محل الجناح و فعل هذا نظرا لان الخطابة مثلها مثل الطير الذي أن قصت جناحاه ماطار أبد الدهر ، و حُلَّيِّهَا أيّ ماهو يضع الأعراب و القدرة على التحكم في قواعد اللغة و تجنب الأخطاء النحوية خاصة يضعه محل الزينة فهو الذي يكسب الخطابة بهائها و يزيدها لمعانا و رونقا و يدرج تخير الألفاظ مدرج البهجة الإبداع و أساس الخلق في الخطابة و تفادي الألفاظ القبيحة في السمع الشنيعة في النطق أي عدم المبالغة و التماس البساطة و الإيجاز و السهولة في التعبير أو أثناء إلقاء الخطبة كي يسهل على الجميع أو الجمهور الفهم و يقصر على الخطيب طريق الإفهام ، و لايقف الجاحظ عند هذا الحد بل يمضي في وصف هيئة الخطيب و هذا ما جاء ذكره [في باب العصا][2] حين أنه من يتم العرب خاصة و خطباءهم عامة الاتكاء عل عصي ، الوقوف أثناء الخطبة ، ووضع عمامة على الرأس وكل هذه النقاط لنا موعد معها في الصفحات الآتية من خلال تطرقنا لنماذج الاستطراد في الخطابة ، التي ادر جناها مرتبة في النقطة الثانية .

ـ مواضع الاستطرادات في قضية الخطابة :

ـ للإيضاح فقد اندرجت قضية الخطابة في كتاب **البيان و التبيين** تحت عنوان مغاير كان **الخطباء الشعراء** ، و فيها ذكر لنا الجاحظ مفهومها و ابرز الخطباء الشعراء من مختلف القبائل .

---

[2] -مقالة : البيان و التبيين لؤلؤة الجاحظ-د – حسان الطيان – مجلة الوعي الإسلامي – سوريا – العدد 568 – أكتوبر – نوفمبر 2012 .

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج 3 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ –تحقيق – عبد السلام هارون ص 31 .

ـ أما عن الاستطرادات هنا فقد لمسنا أولها حين ذكر لنا كون **الطرماح و الكمين** وغيرهم أنهم من المع الخطباء الشعراء، ثم ليستطرد الجاحظ ولوجا إلى حياتهما ومواقفهما وبالتحديد الخصومة التي كانت بينهما وعدم التوافق و رغم هذا فقد كانا صديقين ولم تعرف الخصومة إليهما دربها أو طريقها ، ثم ليستطرد على ضوء هذه القضية إلى قصة أخرى مشابهة لها كانت قصة كل من : **خالد بن صفوان** و **شبيب بن شيبة** ليعود إلى موضوعه الرئيسي الذي كان بصدد عرضه ألا و هو الخطباء الشعراء[1].

ـ كذلك نجد استطراد آخر في قصة **بشار بن يرد** و كونه من منطقة خراسان فيذكر الجاحظ هنا أن لهذا الخير عدة قصائد يمدح فيها خرسان و ما يزيد الأمور توغلا استطراديا حين يستشهد بأقوال تؤكد هذا العزم :

مِنْ خَرَاسَانُ و بَيْتِي فِي الذُرَى **** ولَدَيَ المَسْعَاتُ فَرْعِي قَدْ سَبِقَ .

و يواصل استطراده في هذا المقام ذاكرا على سبيل المثال الموقف الذي دار بين **بشار بن برد و عقبة بن رؤبه** حيث انشد هذا الأخير أرجوزة **لعقبة بن سلم** وامتدحه به فاستحسنه بشار ، فقال له عقبة ، هذا طراز لا تحسنه فرد عليه بشار بغضب ورد على عقبة بن سلم بأرجوزته :

أَسْلِمُوْ حُبَيْتَأَبَا الْمُبَلَّدْ **** لله أَيَّامُكَ فِيْ مَعْدِ

ياَ طَلَلَ الْحَيِّ بِذَاتِالصَّمَدِ **** بِاللهِ خَيْرُ كَيْفَ كُنْتَ بَعْدِيْ[2]

ـ ليستطرد راجعا إلى قضية **عيوب البيان** بالتحديد اللثغة ، لننهي رحلة بحثنا عن مختلف الاستطرادات في هذا الفصل ، آملين أن نكون قد وفقنا و لو لحين.

ـونلمس استطرادا آخر لقضية الخطابة و هذا في الجزء الثاني حيث أخذت الخطابة الدور الأكبر من حديث الجاحظ في هذا الجزء بالتحديد، وإن هو اطلعنا على أسماء بعض

[2] -البيان و التبيين ج1 : لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص 46-47 .
[1] - البيان و التبيين ج1 : لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص 49- 50

الخطباء في الجزء الأول و أشهر فهاهنا يرجع إلى نفس الموضوع لكن بطريقة مخالفة إذ يعرض لنا هنا نماذج لعدة خطب من أهمها على سبيل التمثيل حين نقل لنا خطبة **الرَّسول صلى الله عليه وسلم** خطبة **لعلي بن ابي طالب كرم الله وجهه** خطبة **لعبد الله بن مسعود** ، خطبة **لمعاوية و خطبة للحجاج ...**

ـ ونجد أن الجاحظ قد نبه في بادئ كلامه فيما يتعلق بسبب اختياره لجملة من أقوال **عليه الصلاة و السلام** و قد اقر و أكد أن سبب انتقائه أو ثناءه عليه لم يكن تزيدا أو تضخما أو مجاملة أو مبالغة بل هي الحقيقة الواضحة ، المؤكدة على نباغة و قدرة و مدى بلاغة **رسولنا الكريم عليه عليه الصلاة و السلام** ، و كيفية ورود لكلام عنده قليلا أي مقتضبا ذو معنى و اسع و كبير و بليغ ، و لا خير دليل على هذا الاعتقاد مثلا الأقوال التالية : **" خَيْرُ المَالِ سِكَّةُ مَأْبُورَة و فَرَسُ مَأْمُورَة "، فالسِّكة المأبورة** هي السفر من النخيل المصطف كذلك تعني المصلحة الملحقة ، أما **الفرس المأمورة** معناها كثير الإنتاج ومن ذلك قولهم **أمر الله المال و أمره أي كثره ،** و بارك فيه فالمعنى إذا هو أن رسول الله صلة الله عليه و سلم في هذا القول أراد تبيان أن خير التجارة هي تجارة التمر لما لها من فائدة و عوائد مالية على صاحبها ، كذلك التجارة بالفرس و هذا راجع لطبيعة قائمة في العرب نظرا لأنهم قديما كثيرا ما اتبعوا مسار تجارة التمر و الفرس التي كانت آنذاك رمزا للشهامة و الفروسية و لازالت حتى الآن الفرس ذات رمز بطولي، قوة ، هيبة لصاحبها و بالتالي فالمتاجرة بها كأنما كسب رأس ماله أضعاف ، ولا يقتصر التجارة الناجحة على هذا و فقط ، إنما لابد من توافر الجهد و العمل الجاد على تطويرها وحماية هذا النوع التجاري ، و الابتعاد عن التهاون و الكسل لأنه مقبرة للتجارة على مجه الخصوص ، وفي هذا المقام نجد قول معبر للرسول صلى الله عليه و سلم : **"خَيْرُ المَالِ عَيْنٌ سَاهِرَة ، لَعَيْنُ[1] نَائِمَة "،** كما نقل لنا الجاحظ قولا آخر له عليه الصلاة والسلام **:" نَهَيْتُكُمْ عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ وَوَأْدِ الْبَنَاتِ وَ ْمَنْعٍ وَهَاتِ "،** ومعناه أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد منعها من عقوق الأم و طاعتهن والسعي لكسب رضا يتهن، ومن فعل عكس هذا فهو عاق عاص لله و كذلك نهى عن وأد البنات هذه الظاهرة التي عرفت عند

[1] -البيان و التبيين ج2 : لابي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص20-21.

الجاهلين وهي قتل نفس بريئة لا تكاد فتحت عيناها على الحياة فتورى التراب دون ذنب، ومعنى منع وهات أي الإنسان الذي يمنع عنك شيء و يسعى لأخذ منك أشياء وهذا يدخل في باب الأنانية .

ـ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم : " **لاَ تَجْلِسُوا عَلَى ظَهْرِ الطَرِيقِ ، فَإِنْ أَبَيْتُمْ فَغُضُّوا مِنْ الأَبْصَارِ وَرُدُّوا السَلاَم ، وأَهْدُوْا الضَّالَ ، و أَعِينُوا الضَّعِيفَ** "، ومعناه هو أن نبينا وحبيبنا المصطفى هنا يحثنا على عدم الجلوس على حافة الطرق، فان فعلنا فعلينا مقابل هذا غض البصر أي عدم ترقب الناس أي المارة مادمنا ليس لنا بهم صلة أو شأن وهنا تحضرني مقولة او مثل القائل : "**مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ غَمًّا**"، وأن نرد السلام و التحية على من حيانا و هذا من باب الاحترام و الآداب و من شيم المسلم ، و إرشاد الضال أي التائه الذي جهل أو ارتبك عليه إيجاد طريقه الصحيح إن كان بإمكاننا و هذا يدخل تحت ضرب الإنسانية و أن نعين الضعيف مهما كانت صفته سواء كاهلا آم عجوزا ، مريضا معاقا ...، وكان بحاجة ماسة لمساعدتنا فعلينا فعل ذلك لأن هذا من صفات الشهامة.

ـ إذا و عليه فان عملنا ماجاء في قوله صلى الله عليه وسلم، حزنا على رضا الله وبيان طريقنا و هدي لأنفسنا وصفاء لروحنا.[1]

ـ و يواصل الجاحظ هذا المسار بذكر معظم أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، بالحكم والعبارات و الدروس الغاية في الروعة ، إلى أن يصل إلى ذكر خطبته صلى الله عليه وسلم و التعرض لمختلف ماجاء فيها من نصائح و توصيات عليه السلام لامته ثم يتابع مع مجموعة من أقواله عليه السلام.

ـ ليستطرد و هذه المرة على اثر ذكر قول لرسول الله عليه الصلاة و السلام الذي جاء في مجمله الحث على التعاون بين المسلم و أخيه ، داخلا في إدراج مجموعة من الأقوال التي حوت موضوع **الفهم و الإفهام** فيما يتعلق بكل من القائل و السامع ليستطرد أثناء هذا وتعرضه لكلام **أبو بكر رضي الله عنه** لعمر لما استخلفه عند موته الذي أوصاه فيه بتقوى الله و الحكم بالحق والعدل، ثم يتابع الجاحظ سلسلته الاستطرادية وهذه المرة متجها نحو وصية **عمر رضي الله عنه** لمن بعده فأوصاه بالعناية بالمهاجرين

[1] ـا البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: هارون عبد السلام ص 21 .

الأنصار، حياة الأموال أهل البادية ، ثم يستطرد ولوجا إلى ذكر قصة **عمر** إلى **موسى الأشعري** ، ليواصل طريقه بذكر باقي الخطب التي سلف أن ذكرنا بعضا من أصحابها[1].

ـ لنلتقي بوجود تتمة لقضية **الخطابة** و هذه المرة في الجزء الثالث من هذا الكتاب فكلام أبا عثمان هنا عن الخطابة اقتصر و شمل التحدث عن مستلزماتها منها : **القنا** ، **العمائم العصي ...** ، مدرجا بهذا عدة أقوال ضمت التحدث عنها لنلمس أول استطراد حتى و إن كان جزئي تمثل في ذكره لقول في الإشارة ، ليعود و يتم حديثه عن أدوات الخطابة آنذاك وهذه المحطة تعرض لكلام الشعوبية المعارض لاستعمال هذه الأدوات وإرجاعها إلى استعمالاتها الأصلية ومن هذا قولهم أن العصا تستعمل للقتال والقوس للرمي ، القنا للبقار ورأت أنه ليس هناك من صلة بتاتا بين الخطب **الكلام المنطوق** وبين حامل تلك الأدوات **صاحب الكلام** ، و أرجعت السبب إلى طبيعة في العرب لا غير، أي عرب ذو بدو معتاد على جمل هذه الأشياء ، ليغوص[2] في جملة من أقوال الشعوبيين الذين ثاروا ضد العرب وطريقة عيشهم ، حروبهم ، كلامهم ليسرد لنا بعد ذلك أقواله الدفاعية عن العرب خاصة صدر من الشعوبيين من أقول حين قالوا أن العرب لا يقاتلون ليلا و أتت بعدة أقوال دالة على ذلك ليأتي الجاحظ ويثبت العكس مع الشواهد طبعا المؤكدة على قتال العرب ليلا والتجمع في الخرب مصدر قوة و ليس مصدر خوف كما قالت الشعوبية، الركب شيمة و إستراتجية لابد منها في أي حرب كيفية صناعة الرماح من قبل العرب و أن الرمح الأطول له فائدة وغاية ليصل إلى العصا ليدافع عليها ضد معارضة الشعوبية تلك إذ أنها أعرق العادات العربية و أقدمها خاصة حملها في الخطابة ، و أنها تعود إلى تاريخ سيدنا سليمان وموسى عليهما السلام ، و لازالت حتى الآن تستعمل للتباهي والاعتزاز متخذة أشكالا عدة عصى سحرية العصي الخيالية ،[3] وهي التي تجسد في الأفلام الكرتونية ليستطرد عبر جملة من الآيات الكريمة التي دارت حول الشجر والماء ليعود في نهاية المطاف إلى نفس القضية – العصا - وهذه المرة منشدا لنا عدة أقوال شعرية حوت و تحدثت عنها في ثناياها ليستطرد متعمقا في ذكر صفاتها وميزاتها و كل

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج2لأبي عثمان عمر بن محبوب الجاحظ ـ تحقيق:هارون عبد السلام ص 31-39-45-51.
[2] - ينظر:البيان و التبيين ج3 : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص9.
[1] - ينظر:البيان و التبيين ج2 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: هارون عبد السلام ص20-21

ما يتعلق بها ليستطرد إلى قضية العمائم، وهي إحدى ميزات الخطيب فهي عبارة عن قطعة قماش تكون ملونة أو غير ذلك يضعها الرجل الخطيب على رأسه علامة على الهيبة و الوقار ، و بلوغ مكانة دون آخرين ليخرج من هذا الموضوع فاتحا موضوع آخر كان **التقنع عند العرب** مدرجا لنا أمثال تدعو في التقنع وأنه من شيم وسيمات الرؤساء إذ عرفت هذه الطريقة عند الملوك قديما وهذا بالتقنع و النزول .إلى الأسواق ، الملاهي .... وهذا لمخالطة عامة الناس وبالتالي معرفة قيمة ملكهم لهم، وطبيعة حكمه ، هل هو عادل أم طاغية ظالم كذلك معرفة أحوالهم المعيشية وأنها لخير طريقة للتقرب والسير في نهج حكمي عادل و صالح ،[1] إلى غاية دخول في موضوع **النعال،** وصفاتها عند العرب ليرجع إلى الكلام الأول فيما يخص موضوع **العصا[2]** ليسترسل في التحدّث عنها مرّة ثانية إلى غاية استطراده عبر جملة من القضايا كانت بالتالي : **كتاب الزهد ، النساك النساك من أهل البصرة، الزهاد من الكوفة أخلاط شعر و نوادر وأحاديث رسالة ابراهيم لسباية ، ذكر ما قالوه في المهالبة ، ذكر حروف من الأدب** ، ليعود إلى العصا بعد طول الطريق و هذا بالتحديد في الصفحة المائتين والاثنين والأربعين، ويواصل الحديث عنها بمزيد من الأقوال كذلك .

ـ ونجد للحديث بقية بالتحديد قضية **الخطابة** و هذا في الجزء الرابع (3) و الأخير من هذا المؤلف ، وقصر الكلام هنا على ذكر وإدراج كذلك المزيد من الخطب و هذا ابتداءا من الصفحة الثمانية و الخمسين.

ـ إذا من هذا و ذاك قد حصلنا على جملة من النتائج المستخلصة من هذا الفصل عسى ولعل تكون تصب في اللب منها مايلي:

ـ استطرادات الجاحظ دلالة على محتواه الثقافي .

ـ استطراداته لم تكن دليل على عقم منهجه و عدم أهميته، بل أنها أكسته وضوحا أكثر ودقة أكبر، فالسامع أو القارئ كثيرا ما يجهل قصة ويتعرف عنها من خلال تصفحه لهذا الكتاب.

---

[2] -معارف – مجلة علمية فكرية محكمة – القسم الأول – الجزائر –العدد 04 .2008 ص 118 .

[3] - ينظر: البيان و التبيين ج3 : لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص102-113

ـ إدراجه عدة قضايا متسلسلة الورود منحته خاصية التشابك و التفرع.

ـ كثيرا من استطراداته لم تكن ذات منشأ اعتباطي فوضوي أتى عفو الخاطر، إنما كل لمح استطرادي له نقطة جذب له وردت في القضية السابقة له ولهذا قلنا آنفا التشابك وآم نقل لان من طبيعة التشابك وجود رابطة بين كل خيط و خيط.[1]

هكذا كانت ميزة قضايا الجاحظ.

ـ نستطيع تصنيف من كل ما سلف التوصل إليه و على حسب فهمنا الخاص من إدراج أنواع الاستطراد وردت في كتاب البيان و التبيين فكانت :

1- استطراد كلي: و هو الخروج المؤقت من قضية ما والدخول في أخرى مغايرة تماما للأولى **مثال:** حين عرض لنا قضية البيان و التحدث عن عناصره و يتابع الحديث لنجد له استمرار فيما يخص عنصره الإشارة إذ بدرجه في باب البلاغة و شتان بين باب البيان و البلاغة ، والأمثلة عديدة و الموقف لا يسمح لعرضها كاملة .

2- استطراد جزئي : أو نسميه سطحي و هو توسط قضية عبارة أو جملة تابعة لموضوع استبق و لا تزيد عن جملة أو عبارة فحسب ، و نجد هذا وضاحا حين أورد لنا الجاحظ التحدث عن اللثغة التي تعرف عند الكبار و الصغار وهذه العبارة توسطت قضية الخطباء الشعراء .

3 ـ استطراد تعمقي : وهو تناول قضية بصفة عامة ثم الولوج و التعمق فيها أكثر حتى وإن لم يتطلب الموقف ذاك التعمق، ومثال هذا حين عالج لنا الجاحظ قضية **العي والحصر**،بصفة عامة ليتعمق فيها بذكر نماذج مثال: **سيدنا موسى عليه السلام** ومشكلته اللسانية ، كذلك حين يعرض لنا اللثغة ويكون بصدد عرض حروفها ليتركها ويغوص في عمق القضية و هذا بإبراز عيوب أخرى للسان وكلها رامت إلى الإيضاح والإفهام، وبلورت الصورة في ذهن القارئ على أحسن وجه.

ـ استطرادات الجاحظ دلالة على مدى قوة ذاكرته و مدى نباهته فهو لا ينسى قضية سبق التعرض لها مهما كانت صغيرة.

[1] - ينظر: البيان و التبيين ج4: لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ – تحقيق – هارون عبد السلام ص58.

الفصل الثالث: تأثّر الدّارسين بمنهج الجاحظ

توطئة:

لقد تعرضنا سالفًا إلى كلّ ما يتعلّق بالأسلوب الاستطرادي وتجلّياته في كتاب الجاحظ، والآن سننزاح إلى نقطة مغايرة نوعاً ما هي كتحصيل حاصل لما سبق التوّصل إليه، حيث سنتعرّض في هذه المحطّة إلى تتّبع تأثيرات الجاحظ في مختلف الاتجاهات الأدبية منها القديمة و الحديثة؛ إذ أنّه يُعتبر مدرسةً أُخرجت على يدّها نبغاء ،بلغاء، أدباء ،نافدين متمرِّسين بارعين يشهد لهم العلم الأدبي بالكثير و بالمقابل فقد فالمتصّفح لمؤَلَف البيان والتبيين هذا سيلمس حقيقة واحدة لا ثانية لها : فتمثّلت في كون أنّ الجاحظ قد راما من خلال كتابه إلى العناية بكلّ من القارئ بالدرجة الأولى ثمّ الأثر الأدبي بعدها اعتنى بالمؤَلِف وكما نعلم جميعاً أنّ هذه الأشياء الثلاثة لابدّ منها لإنتاج الأدب و(على مدار التاريخ النقدي تفاوت الاتجاهات فيما بينها للاهتمام بواحد منها و تفضيله على الآخر، وبهذا فقد كان الجاحظ و بطريقة غير مقصودة أو مباشرة قد تنبّأ لنظرية قبل حلول أوانها التي تشبّعت من ملاحظاته وعن طريق غير مباشر لتنمو و تتطوّر في خضام كلّ هذا عُنوِنت بنظرية التلقيّ، خاصّة من خلال عنايته المرّكزة للقارئ ،وقبل هذا نجد أنّ نظرية الأدب ككلّ قد عرفت مراحل ثلاث بدءاً بالمرحلة الرومانتكية في القرن التاسع عشر التي اهتمت بالمؤَلِف ثمّ مرحلة الاهتمام بالنّص أيّ النقد الجديد ليليها مرحلة العناية بالقارئ فكانت ممثّلة بداية في الشكلانية الرّوسية والأسلوبية) لتنشأ على رفاتهما نظرية التلّقي التي أعطت للعناصر الثلاثة حقّها مع إهتمتمها الزائد بالمتلقيّ وكلّ هذا سنتطرّق له بعد حين إن شاء العزيز الحكيم.[1]

[1] -نظرية القارئ و قضايا نقدية و أدبية ـ لد. السيّد إبراهيم ـ مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة.مصر ـ ط :(دت) ص7

المبحث الأوّل: تأثر القدماء بمنهج الجاحظ:

1-1 أثره في أبي الهلال العسكري:

- هو أبو الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري ،وُلد في عسكر مكرم من كو الأهواز وانتقل إلى البصرة وبغداد، له عدّة مؤلفات منها:الصناعتين؛ جمهرة الأمثال ؛ديوان المعاني ؛الأوائل...أمّا فيما نقاط تأثير الجاحظ فيه فلقد تأثر أبو الهلال بالجاحظ تأثرا لا يوصف ولعلّ أهمّ المؤلفات التي أثّرت فيه كتاب البيان والتبيين، ويظهر هذا الجزم جلِّيًا في مؤَلفه -الصناعتين -الذي كان محتواه يشبه إلى حدٍّ كبير مؤَلَف الجاحظ لكن وفق منهج مضبوط ولعلّ هذا ما سيساعدنا إن شاء الله في تبيان وجوه تقاطع بين هذان البلاغيان،علاوةً على هذا فإنّ أهمّ دوافع العسكري لتأليف مصنفه هذا هو الاختلاط الذي أصاب جلّ الكتب آنذاك وتداخل قضاياها إضافة إلى كثرة استطراداتها؛ وبالرجوع إلى ما تمّ التقديم له فإّنا حولنا وعلى القدر المستطاع من إحصاء بعضًا من نقاط التأثّر هذه بين كلٍّ من لجاحظ و أبو الهلال فكانت ملخصةً كالتالي:[1]

- تحدّثه عن البلاغة والفصاحة وهو ما ضمّه الجاحظ في مؤلَفه إذ أتانا بمفهوم البلاغة عند أقوامٍ عدّة إلى جانب ذكره لأهمّ البلغاء،أ مّا أبو الهلال فيُعرِّف لنا البلاغة :"**كلّ ما تبلغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن.**" ولعلّ الأمر شابه لا أتى به الجاحظ حيث قال: "يكفي من حظّ[2]البلاغة أن لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يُؤتى الناطق من سوء فهم السامع."

*تفضيله اللّفظ عن المعنى "**تمام آلة البيان فهي مقصورة على اللّفظ لأنّ الآلة تتعلّق باللّفظ دون المعنى، والبلاغة إنّما هي إنهاء المعنى إلى القلب[...] والبلاغة تتناول المعنى...**" وهذا ما ربطه بالجاحظ أكثر لأنّ هذا الأخير عُرِف بتفضيله للّفظ و انتصاره له فهو صاحب المقولة التي تعبّر في مجملها و تؤكّد أنّ المعاني موجودة موجودة معروفة لدى العامّ والخاصّ لكنّ الأهمّ هو كيفية انتقاء الألفاظ المناسبة لها وهذا ما لا نجده عند العديد.

[1] -المختصر في تاريخ البلاغة- لد.عبد القادر حسين ص98
[2] -البيان و التبيين ج1- لأبي عثمان بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق:عبد السلام هارون ص 40

*اعتبار الألثغ و التمتام ليسا بفصيحين لنقصان آلتهما عن إقامة الحروف، كذلك ما أتى به الجاحظ في البيان والتبيين إذ اعتبر هذا من عيوب البيان التي تشوّهه و تفقده لمعان صورته عند السامع و التلقيّ إلى جانب اللّجلجة ،اللّكنة.."

*أيضًا حين أدرج لنا مظاهر تمام آلة البلاغة إذ ينقل لنا البلاغة عند الهند وهذا بدليل العبارة التالية: "أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح."(1)وهذ ما ذكره الجاحظ في كتابه قبله.

*كذلك حين يتحدّث عن تخيّر الألفاظ و أنّ لكلّ فئة كلام يلائمها[1]،وهذا ما تطرّق إليه الجاحظ في مؤَلَفه ذاكرًا قوله: "ولو جالست الجهال...بالطبائع. "ففيها يفيدنا الجاحظ بمعلومة هي أنّك لو جالست أناساً جهال لا معرفة لديهم لا أصبحت منهم ومثلهم والنّاس ميّالون بالطبيعة إلى سرعة التعلّم من أولئك الجهال غير أنّ محدودية تلقّفهم المعرفة وأصولها من أصحابها يبقى بنسبة ضئيلة مع وقتٍ أطول للتعلّم؛وأيضًا قوله:" وقد يستخّف النّاس ألفاظاً ويستعملونها و غيرها أحقّ بذلك منها..."[2]

*كذلك عند تمييزه بين الكلام الجيّد والكلام الرديء في قوله: "**وأجود الكلام ما يكون جزلاً سهلاً، لا يتعلّق معناه ،ولا يُسْتبهم مغزاه...**"؛وهذا ما تحدّث عنه الجاحظ لمّا نقل لنا قول عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه: "قيمة كلِّ امرىءٍ ما يحسن ."،أمّا أبو الهلال فيقول أنّ الكلام الجيّد هو الذي يجمع بين الجزالة و العذوبة.

*كذلك يلتقيان في نقطة لا تقلّ أهميةً عن سابقاتها مفادها أنّ العسكري دعا ومن خلال كتابه ـ الصناعتين ـ إلى ضرورة الموزنة بين أقدار المعاني أوزان المستمعين: "**أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة، وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش، ساكن الجوارح، متخيّر اللّفظ،يكلّم سيّد الأمّة بكلام الأمّة، ولا الملوك بكلام السّوقة**"[3]،ما نادى به الجاحظ في مؤَلفه مُقّراً بلزومة أنّ لكلّ حالٍ مقاماً حتّى تقسّم أقدار الكلام على أقدار المستمعين التساوي

---

[1]- ينظر: الصناعتين الكتابة والشعر -لأبي هلال العسكري ـ تحقيق: عليّ محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ص7

[2] -البيان و التبيين لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق هارون عبد السلام ص41

[3] -الصناعتين الكتابة و الشعر ـ لأبي هلال العسكري ـ تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ص 14

وتقسم أقدار المعاني على المستمعين على أقدار لك الحالات وإعتبر هذا من شروط نجاح الكلام وبالتالي تكون العملية التواصلية بين الباثّ والتلقيّ على أكمل وجه.[1]

*ونقطة التقاء هاذين العملاقين البلاغين وتوافقهما رغم التفاوت الزمني بينهما،فنجد في هذا المقام تعرّض أبو الهلال العسكري لتعريف المنهج الاستطرادي وضمّه في الصناعتين لقوله: **"وهو أن يأخذ المتكلّم في معنى فبينما يمرّ فيه يأخذ من معنى آخر".**
ـكذا تأثير الجاحظ في أبي هلال العسكري لم يقف عند هذا الحدّ أنّما زاد لدرجة تناوله بعضًا مظاهر وأسس البيان ومصطلحات أخرى من الجاحظ ليُطوِّرها وفقًا لشخصيته البلاغية الخاصة منها مايلي

***ـ تعريف الاستعارة**: إذ يعرّفها شيخ البلاغة بأنّها تسمية الشيء بغير اسمه الذي وُضِع له في الأصل ،أمّا العسكري فتعريف مشابه له ويزيد عليه الوضع أيّ الذي يمّس[2]العبارة يكون بغايات وأغراض من أهمّا تأتي لشرح المعنى، تأكيد و لتقويته أو لكسبه جمالية إبداعية لها تأثير في نفوس المتلقين، ويقر أبو الهلال أنّه لولا تضمن الاستعارة زيادة عن الحقيقة لكانت غير موجود من الأساس والأحقية في هذه الحالة تعود للحقيقة.

***منهج الاستطراد** :فكما سبق و رأينا أنّ أبا هلال قد قدم لنا تعريفاً لهذا المنهج ،ويلتقي مع أبو عثمان من خلال أنّه أعاب عليه إتبّاع هذا الطريق الغير منهجي ،وعدّه من المآخذ عنهلكن و بالمقابل هذا لم يمنعه من الإشادة و الاعتراف بما أتى به الكتاب من قضايا جدّ مهمّة و غنيّة، ويظهر كلّ هذا من خلال مقدّمة كتاب الصناعتين وهي: **"فلمّا رأيت تخلّي هؤلاء الأعلام فيما راموه من اختيار الكلام، ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل، ووجدت الحاجة إليه ماسّة والكتب المصنّفة فيه قليلة، وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان و التبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ، وهو لعمري كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة، والفقر اللّطيفة والخطب الرّائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة و الخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المُستحسنة، إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة و أقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تصانيفه، ومنتشرة**

---

[1] -فنّ السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب التربيع و التدوير، البخلاء، الحيوان لد. رابح العوبي ص152
[2] -ينظر: المصطلح النقدي في التراث الأدبي و العربي ـ لد.محمد عزّام ـ دار الفكر العربي ـمصر. ط(دت) ص 45

في أثنائه،فهي ضّالة بين الأمثلة لا توجد إلاّ بالتّأمل الطويل،والتّصفح الكثير،فرأيت أن أعمل كتابي مشتملاً على جميع ما يحتاجه من صنعة الكلام:نثر هو نظمه..."؛إذاً فأبو هلال يصرّح إلى جانب تلك الإطراءات لكتاب البين والتبيين يصرّح بأنّ كتابه جاء لإخضاع كتاب البيان و التبيين للتقنين و المنهجية المُحكمة و فعلاً فما عُرِف عنه أنّه سلك طريقاً معاكساً لطريق الجاحظ ذاك.[1]

ـ إنّ هذا أحد تأثيرات الجاحظ عليه وفي هذه النقطة سنستدرك ما فاتنا منذ حين ونتحدّث عن الجهة التأثيرية الثانية له و دائما في (2)،إذاً لولا تأثره بالجاحظ لما تطرّق[2]للاستطراد من الأساس و علاوة على هذا فقد آتانا بأمثلة ولم يكتفي فقط بالتمثيل الجّاف المجرّد ولعلّ من الأمثلة التي شدّتنا ولفتت انتباهنا لمّا نقل لنا قول حسّان بن ثابت :إِنْ كُنْتِ كَاذِبَةًُ الذِي حدّثْتِنِي *** فَنَجَوْتِ مَنْجَى الحَارِثِ بْنُ هِشَامْ[3]

ـ وكوقفة وجيزة فالحارث بن هشام هو أخو أبي جهل، أسلم يوم الفتح و حسُن إسلامه، كان شريفًا كبير القدر وهو الذي أجازته أمّ هانئ ،قال عليه صلى الله عليه وسلّم :"قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ" ،وله رواية في سنن ابن ماجة ،أُستُشْهد بالشّام ليتزوّج عمرو بعده زوجته[4](4)،أمّا بالرجوع إلى قول حسّان بن ثابت فقد شبّه حبيبته إن كذبت عليه فستنجو كما نجا الحارث وذل لفراره منأخيه يوم بدر طالبًا الحماية من أمّهانئ، إذًا فحسّان قد استطرد من كذب حبيبته إلى ذكره لمصير الحارث ونجاته كالشعرة من العجين.

ـ **ضبط مفهوم الاعتراض:** الاعتراض مأخوذ من عرض أيّ ظهر واعتراض الشيء أيّ حال دونه،وهو مصطلح مضطرب الفهم وأوّل من تحدث عنه الجاحظ وكأنّه لم يُفرّقه عن الكناية أيّ أنّ الاعتراض نفسه الكناية عند الجاحظ، ونستدّل على هذا الاعتقاد بقوله التالي: **"إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل، وإذا قيل للعامل الوالي مُسْتَقْصٍ فتلك كناية عن الجور** ؛أمّا العسكري فلم يقدّم لنا تعريفًا خاصًا به إنّما اكتفى بنقل تعريف ابن المعتزّ له الذي عرّفه على أنّه كلام في كلام لم يتم؛ أيّ أن المتّحدّث يتحدّث وبصورة

[1] -ينظر:الصناعتين الكتابة و الشعر- لأبي هلال العسكري ـ تحقيق: عليّ محمد الجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ص178.
[2] -المصدر نفسه ص 4.
[3] -ينظر: المصدر نفسه ص 235 و 34.
[4] -أوقاف ـ المكتبة الإسلامية ـ 1422 هـ/2001م.على الرابط:19952015&Islamweb.net.

مفاجئة تقطع جملته الكلامية تلك جملة أو كلمة أو حادثة متعارضة مع1 ما تمّ التوصّل[1]إليه وعليه فالأسلوب الاعتراضي عكس الأسلوب الاستطرادي ،فإذا كان الاستطراد تتابع وتوالي فالاعتراض قطع وتوقف للبدء في قضية جديدة؛ فعنه يقول أبو هلال :"**وهو أن يكنّى عن الشيء وعرّض به، على حسب ما عملوا باللحن و التورية عن الشيء،كما فعل العنبري ؛إذ بعث إلى قومه بصرّة شوك وصرّة رمل وحنظلة، يريد:" جاءتكم بنو حنظلة في عدد كثير ككثرة الرّمل و الشّوك."**[2]

*مسألة تعريف الإطناب: يلتقيان في هذه النّقطة من خلال تعريفهما له، وقبلاً لا بأس أن نعرف ما هو الإطناب على وجه العموم فيفيد المبالغة ،وقد عرّفه ابن الأثير في قوله أنّه:" زيادة اللّفظ على المعنى بفائدة" فنفهم من كلام ابن الأثير أنّ المتحدّث قد يحتاج أحياناً إن لم نقل كلّ الأحايين إلى الإطالة في كلامه و هذا وقوفاً عند رغبة إفهام القارئ أو السامع؛ أمّا(أبو هلال العسكري فقد تطرّق له حين فرّق بينه و بين التطويل قائلاً: الإطناب بلاغة والتطويل عيّ")[3] فالتطويل إذاً يُبعد الفهم ويُحقق الجهل بدل الإدراك وأن كان المعنى قريباً للأذهان فهو يُبعده و ينفيه عنها بحكم اللّف و الدوران وكثرة الكلام دون اقتضاء المقام لتلك الزيادة الكلامية، ولا أقصد من شرحي هذا الإطالة ذات الفائدة فتلك تندرج تحت الإطناب الذي يُعتبر طريق طويل قائم بغرضٍ تبسيطي توضيحي لتحقيق الفهم والإدراك لذا فهو كثيراً ما يقترن بلفظة "الزيادة الحسنة"

ـ أمّا الجاحظ فتطرّق إليه لمّا ذكر لنا فضائل الصمت[4] والكلام الموزون الذي يُلْقى في وقته ومكانه المناسب فيقول :"**قد بَقِيَت ـ أبقاك الله ـ أبواب توجب الإطالة و تُحوج إلى الإطناب وليس بإطالة ما لم يجاوزه مقدار الحاجة ووقف عند منتهي البغّية، وإنّما الألفاظ على قدر المعاني فكثيرها لكثيرها ،وقليلها لقليلها، وشريفها لشريفها، وسخيفها لسخيفها..."** ،والمقصود هنا أنّ الجاحظ قد أقرّ ومادام الكلام لم يتجاوز مقدار الحاجة فلا

[1] -ينظر:المصطلح النقدي في التراث الأدبي و العربي ـ لد.محمد عزّام ص 46

[2] -الصناعتين الكتابة و الشعر ـ لأبي هلال العسكري ـ تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم ص 248

[3] -ينظر: جماليات التلّقي وإعادة إنتاج الدّلالة(دراسة في لسانية النص الأدبي ـ لد. محمد السيّد أحمد الدّسوقي ـ دار الإسكندرية .مصر العلم و الإيمان ـ ط: 2007 - 2008م ص1748

[4] -البيان و التبيين ج1لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: محمد هارون عبد السلام ص 194

ضير من الإطالة والزيادة في هذا المقام ذلك أن أبا عثمان كثيراً ما نادى بملائمة أقدار المعني للألفاظ و للسامعين.

2-1 - أثره على ابن رشيق القيرواني من خلال العمدة:

- هو الحسن بن رشيق الأزدي، المولود سنة الثلاثة مائة والتسعين هجري الموافق التسعة والتسعين و ومائة للميلاد والمتوفى ليلة السبت ذي القعدة من عام المائتين وستة الخمسين الموافق للأربعة والسّتين و الألف من أشهر مؤلفاته كتاب العمدة، ولنفهم هذا العنصر ولعل ما يوضحه لنا أكثر ما أتى به ابن رشيق في مؤلفه القيّم هذا متكئين عليه لاستخراج أهمّ نقاط الاشتراك بين كلايهما، وقبلا لا مانع أن نعرِّج على أنّ كتاب العمدة هو من أضخم كتب التراث العربي الذي جمع أحسن ما قاله ممن صنّف في معاني الشعر ومحاسنه و آدابه ونقده واعتمد مؤَلِفه فيه على القريحة نفسه و نتيجة خاطره خوف التكرار ورجاء الاختصار[1]

- وأوّل هذه التأثيرات كان في قضية اللفظ والمعنى فابن رشيق القيرواني يورد اللفظ مرتبطا بالمعنى فاللفظ هو الجسد والمعنى الرّوح لذاك الجسد[2]،كذلك ينتصر للألفاظ ويفضلها على جانب المعاني ويظهر هذا في قوله : "أكثر النّاس على تفضيل اللفظ على المعنى، وينقل ما سمعه ،ولعلّ أهمّ ما يبرز تأثره بالجاحظ نقله عن قول العلماء :"...فإنّ المعاني موجودة في طباع النّاس، ويستوي فيها الجاهل و الحاذق، ولكن العمل على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحّة التأليف..."[3]فإن كانت هذه المقولة قريبة من شيء فهي هو أقرب إلى المقولة الشهيرة للجاحظ: "المعاني مطروحة في الطريق يعرفها العربي والأعجمي والبدوي و القروي..."

*كذلك يلتقيان في أطار تعريف ابن رشيق للبلاغة إذ يقول أنّها عكس العيّ والعيّ العجز عن البيان، ونقل لنا قول الخليل بن أحمد إذ عرّفها بقوله. "البلاغة كلمة تكشف عن البقيّة؛ وهذا تماما ما أتى به الجاحظ في مؤلفه ويظهر هذا من خلال عبارته المذكورة في للبيان و التبيين مفادها المختصر:"أنّهم يجعلون العجز و العيّ من الخرق."

[1] -العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ج1 -لأبي العليّ الحسن بن رشيق القيرواني ص03
[2] -ينظر: نظرية أبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ في النقد الأدبي - لد.محمد ابن عبد الغنّي المصري ص 84
[3] -ينظر: المختصر في تاريخ البلاغة - لد. عبد القادر حسين ص127

*لمّا يتناول موضوع النظم في الشعر وقد نقل في هذا عن الجاحظ أنّ أجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء سهل المخارج فتعلم بذلك أنّه أفرغ إفراغاً واحداً وسبك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان فيخف سماعه، ويقرّب فهمه ويعذب النطق به، فإذا كان متنافراً متبايناً عسُر حفظه وثَقُلّ على اللسان النطق به وهجته السامع فلم يستقرّ فيها منه شيء."[1] ؛ فها نحن نلتمس في هذا القول الجاحظ إذ يقنّن الصناعة الشعرية فيشترط فيها التلاحم و التشابك أيّ أن تأتي البيات مرتبطة ببعضها البعض ككتلة وهذا ما ينتج عنه تحقيق الوحدة الموضوعية للقصيدة، أيضاً يجب أن تكون ألفاظ تلك المنظومة الشعرية بسيطة غير معقدة وهذا الشيء ليس بالأمر الغريب على الجاحظ الذي نادى بالابتعاد عن التكلّف كما سبق وأن رأينا، كذلك يتوجب حضور الإيقاع ولا يتحقق هذا إلاّ عن طريق ضبط التفعيلات و الأوزان ،فإن تحققت كلّ هذه الشروط التي أتى بها الجاحظ كان وقع الشعر في قلب المستمع أخّف و أعذب و سهل الفهم ،بالمقابل إذا تعذّر توفّرها شوّه المنظوم هنا ولا يستحق أبداً صفة النظم ، قد يكون كلاماً في هذه الحالة مسجوع لكنّه ليس شعراً.

* وما يزيد التأثير هنا وضوحاً قول جعفر بن سليمان الذي ذكره الجاحظ في مؤلفه مؤكداً ما تمّ شرحه عن القول الصادر عنه، فيقول: "ليس طيب الطعام في كثرة الإنفاق وجودة التوابل وإنّما الشأن في إصابة القدر "وكذا قول سهل بن هارون: "السان البليغ[2]والشعر الجيّد لا يكادان يجتمعان في واحد ،وأعسر من ذلك إن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم." ؛ فمعنى القول الأوّل هو أن يمتاز الكلام مهما كان نوعه شعراً أو نثراً بالباسطة والمغزى في إيضاح القصد و إصابته، أمّا المقصود من قول ابن هارون فأكّد على عدم توافق كلّ من البلاغة و الشعر ولعلّ هذا ما يبرّر لنا أنّ العديد من البلاغيين لم ينظموا الشعر إنّما اكتفوا بوضع القوانين التي تحكم ذاك الكلام و تركوا للشعراء وظيفة النظم.

*التقائهما في قضية الإشارة إذ يقول ابن رشيق أنّها من غرائز الشعر وملحه وبلاغته عجيبة تدّل على بعد المرمى وفرط المقدرة ،ولا يأتي بها إلاّ الشاعر المبرز والحاذق

---

[1] -العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ج1 - لأبي العليّ الحسن بن رشيق القيرواني ص 145 -257
[2] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق عليّ أبو ملحم ص 193 و 204

الماهر ،وهاهنا يظهر تأثره بالجاحظ، إذ ينقل عنه قول أنّ الإشارة تتقدم الصوت وهي أبلغ منه وحسن الإشارة باليدّ و الرّأس ومن تمام حسن البيان[1]،أمّا عن الجاحظ فقد ضمّن هذا في باب البيان حين تحدث عن أدوات الدّلالة و أحصاها بخمس: الخطّ، العقد، اللفظ، الحال[2]،الإشارة التي قسمها إلى نفس ما تمّ ذكره من قبل ابن رشيق .

ـ وبهذا القدر نكون قد رصدنا لمسامعكم الطيّبة بعضاً من أبرز نقاط التشارك بين ابن رشيق و معلّمه إن صحّ الحكم ، فكان القيرواني بمثابة بطاقة تعريف لأهمّ ما جاء به الجاحظ فمن تعسّر عليه فهم أمر من الجاحظ نفسه لعدّة أسباب مانعة لتحقيق الفهم عنده فإنّه أدرم أموراً مع مجيء ابن رشيق القيرواني.

-3.1 ـ أثر الجاحظ من خلال البيان و التبيين في ابن وهب من خلال البرهان في وجه البيان:

ـ هو إسحاق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب أسرته كانت تخدم الدواوين العبّاسية منذ عصر المأمون، وكان جدّه سليمان من جلّة الكتّاب، وزر للخليفتين المهتدي باللّه والمعتمد على اللّه، توفي سنة الستة والسبعين والمائتين هجري وهذا ما يؤكد أنّه عاش في القرن الربع للهجرة ،فهو بهذا من معاصرين[قدامه بن جعفر الذي كانت ولادته مقرّبة من ميلاد ابن وهب أيّ سنة المائتين و الستّين هجري متوفى في بغداد،][3]أمّا عن مؤَلَف ابن وهب فقد شهد نوعاً من الضياع إذ أنّه أُنسِب وبالخطأ إلى قدامه بن جعفر تحت اسم مغاير لاسمه الحقيقي أيّ "نقد النثر" لكن ظهرت بعض الشكوك حول هذا النسب وذاك بورود عبارة في خاتمته مفادها: "كمل البيان بحمده تعالى وحُسْن عونه" وفي مقدّمته كذلك وُجدت عبارة دالّة على أنّ ذاك النسب غير صحيح، ومن كلّ هذه الإثباتات تأكدت الشكوك تلك ليصدر على إثرها الدكتور عليّ حسن عبد القادر مقالاً يؤكد فيه نسبة الكتاب إلى إسحاق بن وهب عنوانه" البرهان في وجوه البيان" الذي كان مؤَلِفه شيعياً له عدّة مصنّفات في الدّين والفقه؛ أمّا بالرجوع إلى نقاط التقاطع بينه و بين الجاحظ فما ارتأينا إلاّ أن نلخصها لكم كالتّالي:

[1] -ينظر: العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده ج1 ـ لأبي عليّ الحسن بن رشيق القيرواني ص 302
[2] -ينظر: البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: هارون عبد السلام ص 75
[3] -الملامح الفنّية في نقد العرب ـ لد.عزّ الدّين الأمين ـ الشارقة ـ دولة الإمارات المتّحدة ـ ط01:2008 ص 125

*أوّل نقطة نلمسها هي مسألة الوحي ؛فابن وهب يعرّف أو جاءت عنده لفظة "الوحي" بمعنى الإشارة التي جاءت عند الجاحظ إلى جانب تقديمه لنا أنواعها وعناصرها ،ونجد دليل هذا التأثّر في كلام الجاحظ إذ يقول:"وممّ مدحوا به الإيجاز والكلام الذي هو كالوحي"[1]

*اهتمامه بن وهب ـ بالمجاز و الاستعارة فقد عنى بهذين الضربين اعتبرهما من أدوات البيان متحدّثاً من خلال هذا على الأمثال، اللّغز، الحذف، ولعلّ هذا ما جاء به أبو عثمان قبله ويظهر في لبيان والتبيين حين أورد الجاحظ كلاماً في اللّغز و الأمثال.

*كذلك نجدهما يلتقيان في نقطة الابتعاد عن التكلّف، فكانت هذه القضية من أهمّ القضايا التي اهتم بها الجاحظ في مؤلف و دعا إلى إتبّاعها، ليأتي ابن وهب بعد سالكا نفس الطريق ،إذ يقول فيما يّخصّ محاسن الشعر: "والذي يسمّي الشعر فائقًا ويكون إذا اجتمع فيه محسّنا رائقاً صحّة المقابلة وحُسن النظم وجزالة اللّفظ واعتدال الوزن وإصابة التشبيه وجودة السبك وقلّة التكلّف والمشاكلة في المطابقة"[2]؛فأوّل هذه الصفات اشتقها من خلال تأثره بأرسطو وما عداه فكلّها مشتقة من عند الجاحظ الذي حثّ على البساطة ،الوضوح، الإيجاز مع جمالية الكلام و شاعرية ذاك الإبداع كي يسهل الإفهام ويتحقق الفهم لدى المستمع أو القارئ بصفة أعمّ ولعلّ ما ضمّنه مقولة حول تعريفه البيان وأنّه سرّ الجمالية، إضافة إلى أنّه قال أنّ سرّ الإبداع الكلام أن يكون نابعاً من القلب والصدق ،فإذا كانت الكلمة كذلك تجاوزت الآذان إلى القلوب وإن كانت عكس هذا لم تمرّ إلاّ في الآذان فحسب.

* ويتقطعان أيضاً في مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وتبلور تأثير الجاحظ في ابن وهب في هذه النقطة واضحاً وجلّياً للعيان من خلال القول الذي ضمّه في كتابه وكان كالتّالي: "وممّا ينبغي للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر أن لا يخرج في وصف أحد ممن يرغب إليه أو يرهب منه أو يهجوه أو يمدحه أو يغازله أو يهازله عن المعنى الذي يليق به ويشاكله ،فلا يُمدح الكاتب بالشجاعة ولا الفقيه بالكتابة ولا الأمراء إلاّ بحسن

---

[1] -ينظر: البلاغة تطوّر و تاريخ ـ لد. شوقي ضيف ـدار المعارف ـ القاهرة. مصر ـ ط01:(دت) ص99.
[2] -نقد النثر ـ لأبي فرج قدامة بن جعفر (البرهان في وجوه البيان لابن وهب) ـ دار الكتب العلمية- بيروت. لبنان ـ ط: 1416هـ - 1995م ص84

السياسة ،ولا يُخاطب النساء بغير مخاطبتهنّ، ولكن يُمدح كلّ واحد بما فيه من فضيلة..."[1] ـ فمن خلال هذا القول نجد أنّ ابن وهب قد دعا الشاعر إلى الالتزام في قوله وهذا عندما يُراد كلّ كلام أو حديث في مكانه المناسب والخاصّ فلا يجوز مثلاً أن يُمدح الكاتب بالشجاعة لأنّها من صفات المقاتل ،المحارب، وعليه أن يصف النّساء بأوصافهنّ المتعارف عليها لدى العرب "كالقمر، الغزال، النّور ،الوردة..."ولا يجوز وصفها بأوصاف أشياء خشنة ،وعلى ا لمهجو أن يسمع من الكلام بألفاظه الرديئة وليس العكس.

* ولهذين البلاغيان نقطة التقاء أخرى زادت من تعمّق تأثير الجاحظ في ابن وهب آلا وهي قضية تطابق اللّفظ بالمعنى، حيث تطرّق في هذا الكتاب ابن وهب إلى الحشو الذي يؤدّي إلى تعالق الأبيات وتداخلها، ما يصعّب عليه الفهم لدى السامع، ليتحدّث عن عذوبة اللّفظ والمعنى ،وثقله ووضع المعاني في مواضيعها ولا يُستحسن السرقة، الكذب، الإحالة في شيء من فتوى القول إلاّ في الشعر ،ويظهر هذا من خلال قوله:" **وممّا ينبغي له أيضاً أن يجتهد فيه أن يكون معنى كلّ بيت و لفظه متساويان حتّى يتّم المعنى تمتم اللّفظ ولا يواتيك فيما ناب من خلقٍ[...]إلاّ أخو ثقة فأنظر لمن تثق .تمّ معناه بتمام لفظه من غير حشو ولا تضمين.**"[2] ،ولعلّ هذا ما تطرّق إليه الجاحظ حين قال على اللّفظ أن يكون وحشياً غريباً، أو مبالغاً فيه لأنّ مدار الأمر الفهم و الإفهام للقارئ.

* ومن نقاط اشتراكهما أيضاً يمكن ذكر موضوع الخطابة فتولّى ابن وهب الخطابة ووصفها وطرقها متأثّراً بشدّة هنا بالجاحظ في بيانه حتى أن وصل به هذا التأثّر وشدّته إلى أن نقل الكلام وذلك من الصفحة الخمسة والتسعون إلى غاية الصفحة المائة و الثلاثة عشرة مواضعه كلّها مأخوذة من كلام الجاحظ ككلّ ما اشتمل على التحدّث عن لغة الخطب و بعده عن اللّفظ الغريب، واتصافه بالسجع، أو فيما يخصّ هيئة الخطيب وصوته فعليه أن يوجز في مواضيع الإيجاز ويطنب في مواضيع الإطناب[3]ولا يجوز العكس أبداً حيث يعرفها ابن وهب في كتابه بأنّها: "تستعمل في إصلاح ذات البين، وإطفاء نائرة الحرب ،وحمالة الدّماء إلى الله عزَّ وجلّ وفي الاشادة بالمناقب ولكلّ ما أُريد ذكره ونشره و شهرته بين

[1] –نقد النثر ـ لأبي قدامة بن جعفر ـ الأضل: البرهان في وجوه البيان ـ لابن وهب ص 87
[2] –المضدر نفسه ص 88
[3] -ينظر: المصدر نفسه ص 92

النّاس..."[1]ويشترط فيها البسملة والحمدلة فالخطبة بدون ذكر اسم الله هي البتراء،وإن لم توّظِف القرآن فهي الشهباء وعلى الخطيب أن يكون "عارفاً بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له"فلا يستعمل الإيجاز إلاّ إذا تطلّب الأمر، ولا يستعمل الإطناب إلاّ للضرورة[2].،فها هو يتبع تقريباً نفس خطوات الجاحظ في هذا المقام بالذات ،فيعرف الخطابة على أنّها فنّ تواصلي بين الجمهور لهذا وجب على متتّبعيه أن يُحسنوا فيه و أن يتتبعوا الشروط والقواعد حتى لا يقعون في نهاية المطاف في مطبّات الغموض ،اللّبس، الاطالة بغير فائدة .

ـ من بعد الانتهاء من كلّ هذه التأثّرات من قبل القدماء اتجاه الجاحظ نستنتج أنّه لم يمت قط بفضل هؤلاء الأدباء البلاغيين ظل خيال الجاحظ حيًّا يتجوّل بين الأجيال راسمًا حدود أوسع لنشر أفكاره وآرائه ،وفيما يلي ذكر و تبيان لأيّ مدى وصلت تأثيراته في عصرنا الحديث من خلال تناولنا نظرية التلّقي كأنموذج .

[1] -ينظر: نقد النثر ـ لأبي الفرج قدامه بن جعفر (الأصل: البرهان في وجوه البيان لابن وهب) ص 93
[2] -ينظر: المصدر نفسه ص 96

المبحث الثاني: تأثر المحدثين بمنهج الجاحظ "نظرية التلقيّ أنموذجاً:

ـ تفيد لفظة التلقيّ في مفهومها اللّغوي على الاستقبال فيُقال فلان تلّقى فلاناً إذا استقبله،[1]لكنّ وإن تمعّنا جيّداً في مختلف آي الذكر الحكيم لوجدناها أتت تحت لفظة "تلقيّ "ولم ترد أبداً على لفظة "استقبال" ودليل هذا الجزم قوله عزّ و جلّ: "وإنّك لا تلقى القرآن من لدن حكيم حليم" ،ومنه قوله تعالى: "فَتَلَقَى آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ "،فدلالة التلقيّ هنا و بناءاً على هذه الآيات الكريمة تشير إلى عملية التفاعل النّفسي والذهني مع النّص ،فوردت لفظة تلقيّ دلالة على الفطنة والذكاء(1)،إذاً فهي فنّ ارتبط بالكلام المسموع أكثر من الكلام المكتوب ؛ففي معناها الاصطلاحي هي الاستقبال والاستجابة أيّ أنّها نظرية تهتمّ بالأثر الفني من جهة تلقيه و كيفية استقباله من قبل القارئ، أمّا إذا جئنا إلى القاموس الغربي فإنّنا نجد أنّ نظرية التلقيّ كانت في بادئ أمرها تُعرف تحت اسم"الاستقبال "ما يقابله باللّغة الأجنبية مصطلحTheroyReception [نظرية التلقيّ] حيث ارتبطت آنذاك بمجال الفندقة أكثر من المجال الأدبي كما أشار إليه ممثّل هذه النظرية هانز روبرت ياوسH .R.Jauss فكانت ذات انطلاقة ألمانية، لتتطور تصبح تطبّق في كافة الميادين كعلم الاجتماع، تاريخ الفنّ...[2]فهي النظرية التي تهتمّ بالقارئ والنصّ،وعُرفت في المجتمع الأمريكي بنقد المتعلّق بالقارئ و الاستجابة أتت ممثلة في نورمان هولاندNourman Holland وأيضًا جون أتان كوليرJounAthanCuller ، كما أنّ لا شيء يأتي من العدم كذلك نظرية التلقيّ بُنيت على تراكمات عدّة منها البنيوية التي اهتمت بالنّص كبنية قائمة بحدّ ذاتها، والاعتماد على الملامح اللّغوية للنصوص أيّ بمعنى أنّها اهتمت بالنّص واتخذته كبنية مستقلّة قائمة بحدّ ذاتها[3]

---

[1] -لسان العرب لابن منظورج12 [لقا] ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت. لبنان ـ ط01: 1419هـ ـ 1999م ص 319

[2] - قراءة النّص و جماليات التلقيّ بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة ـ لد. محمود ط01: 1417هـ -1992م ص 16

[3] -ينظر: نظرية التلقيّ مقدّمة نقدية ـ ترجمة د. عزّ الدّين إسماعيل ـ لروبرت هولب ـ المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة.مصر ـ ط 2000 ص 27

ـأمّا التراكم الثاني الذي ساهم في تشكّل هذه النظرية و سيرها وفق طريق منهجي علمي هو الشكلانيون الرّوس حيث اهتموا بالشكل فقيّدواالقارئ وفقًا لمطالب و أمور سياسية.

1.2- روّاد نظرية التلقيّ:

ـ قد شهدت هذه النظرية رواجاً كبيراً في القرن العشرين ممّا نتج عنه إتّباع العديد لها و مساندتهم و تفضيلهم إيّاها عن سائر النظريات الأخرى وهذا لإعتقاد منهم أنّها أقرب إلى المنطق وهي النظرية الوحيدة التي أنصفت القارئ لكن ليس على حساب العنصر المتبقيّ من العملية الإبداعية "المؤلِف فقد اهتمت بالقارئ وركّزت عليه ولم تنقد او تنفي دور المؤلف إنّما هي إعادة بناء ورسم العلاقة بين النصّ والقارئ فحسب ردّاً على التيّار الماركسي ،وبطبيعة الحال فلقد تشكّلت على أيد أعلام وروّاد الذين نذكر منهم التالي :

1- هانز روبرت ياوس:

ـ عمل أستاذ في جامعة "كونستانس"الألمانية في الستينات هو من الذين اضطلعوا بإصلاح الناهج الثقافة والأدب في ألمانيا ،وهو باحث ولغوي رومانسي ،متخصص في الأدب الفرنسي، متطلّع إلى التجديد في معارفها لأكاديمية كان هدفه الأساسي الربط بين الأدب والتّاريخ، كما حاول تلخيص الأدب الألماني فمبدأ ياوس يقوم على توفّر معيار الإدراك الجمالي لدى القارئ ومعيار الخبرات السابقة التي تمّ استدعاؤها في التلقيّ، أيّ أنّ القارئ هنا عليه أن يكون قارئا نموذجيًا يدخل النصّ وهو مسلّحًا بجملة من المعارف والثقافات التي من شأنها أن تساهم في إثراء النّص ذاك.[1]

2- وولف كانج أنزرو:[2]

ـ كان مدرّسًا في الجامعة الألمانية "كونستانس" برتبة أستاذ ،قام هو وزميله ياوس بمهمّة إصلاح الدراسات الثقافية الأدبية من خلال المحاضرات والمؤتمرات ،وكانت إلى هذه المحاضرات ـالإيهام واستجابة القارئ ت في خيال النثر عام السبعين و التسع مائة والألف ،لكنّ أفكاره لم تُعرف إلاّ بعد نشر كتابه ـسلوكيات القراءة ت فالعمل الأدبي عنده ليس نصًّا فحسب ولا القارئ قارئا فحسب إنّما هو تركيب التقاء الاثنين، قائماً في كلّ هذا على مبدأ التحليل و التفكير .

[1] -ينظر: قراءة النّص و جماليات التلقيّ بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة ـ لد. محمود عبّاس عبد الواحد ص 27

[2] -قراءة النّص و جماليات التلقيّ بين المذاهب الغربية الحديثة تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة ـ لد. محمود عبّاس عبد الواحد ص 27

3- رومان أنجاردن:

ـ لم يكن من روّاد هذه النظرية المباشرين إنّما كتابه الأوّل في التحدّث عن العمل الإبداعي الذي ساهم في تحريك عقول الأساتذة نحو نظرية التلقيّ جديدة ليُصبحوا روّادًا فيها ،فعلى هذا كان أنجاردن بمثابة الأب الرّوحي لنظرية التلقيّ.

2.2- أهمّ إجراءاتها:

ـ تمتاز نظرية و كغيرها من النظرية و كونها مبنية وفق أسس علمية منطقية مُحتكمة إلى العقل بمجموعة من المبادئ التي تشكلّت من تراكم لجهد أعلامها و منشئيها ،لذا فقد بلورنا ها ملخصة كالتّالي:

1- أن يكون القارئ حرّاً: ليس معناه هنا أن يكون فوضوياً في إدراكه و تعامله مع النصّ، إنّما له أن يلتزم بقواعد فنيّة، أمّا الحريّة فالمقصود بها هنا مقارنة مع ما أتت به الماركسية حيث قيّدت القارئ ووجّهته وجهة سياسية، فمنعت بهذا تحقق صفة الجمالية ونفتها عن النصّ الأدبي[1].

2 ـ المشاركة في صنع المعنى : وهذا تتمّة لما سلف التعرّض له ،فعند تحرّر القارئ والتزامه بقوانين فنية أكيد سينتج و يُخرج لنا نصًّا وقفاً على مدى مكنوناته الإبداعية، وهذا ما يجعلنا أمام مفهوم النصّ المفتوح ،فكأنّ نظرية التلقيّ أتت لتبثّ الرّوح في النصّ بعدما شهده من مدّ وجزرٍ من قبل نظريات سابقة لها، وهنا بإتّباعه مهمّة الإدراك المباشر ،أيّ بداية تشكّل فهمه للنصّ الأدبي ذاك ثمّ مهمّة الاستذهان أيّ استحضار محصّلاتها الإبداعية لخلق نصٍّ جديد ،بذوقٍ جديد ،بشكل جديد.

[1] -ينظر: قراءة النّص و جماليات التلقيّ بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة ـ لد. محمود عبّاس عبد الواحد ص 22

3 ـ **وظيفة المتعة الجمالية:**[1]نستطيع أن نقول أنّها تزاوج و دمج للإجراءين السابقين، إذ أنّ الأوّل" حريّة القارئ "هو عبارة عن انصهار الذات أمام الموضوع ذاك ،والثاني" المشاركة في صنع المعنى "عبارة عن موقف يبلور فيه كيف يجعل ذاك الموضوع جماليًا بطريقة ثانية، موضوع ناتج عن إدراكه و فهمه لذلك النّص المعالج أو المقروء ؛إذاً كانت هذه الأدوات الثلاث المسؤولة عن قيام نظرية التلقيّ كمفهوم و كتطبيق، وإذ ما حاولنا رصد أهمّ أو تناولها بصورة عربية أصيلة فسنلتقي و للوهلة الأولى بمحطّة تقاطعية بينها وبين شيخ بلاغتنا العربية "الجاحظ" من هنا نتساءل يا ترى ففي ماذا تمثلت نقاط التشابك بينهما وهل هي حقًّا موجودة من الأساس؟ كلّ هذا سنعرف وجوده من عدمه من خلال تطرّقنا للعنصر الآتي.

3.2 ـ مبادئها و أنواع القرّاء عندها:

أ . مبادئها:

ـ تمتاز نظرية التلقيّ كباقي النظريات بعدّة مبادئ سنتطرّق إليها كالتّالي:

*أن النّص فيها لا ينفصل عن التاريخ تلّقيه و قراءاته التي نتجت عنه[2] فتاريخ النّص هو على وجه التحديد تاريخ تجسّداته المتلاحقة عبر التاريخ بحيث أنّ النّص لا يُفهم دون أخذ تحقيقاته بعين الاعتبار.

*أنّ تحليل التلقي يفلت من مزاعم النزعة الفردية الذاتية، فأنماط التلقيّ ليست ذاتية تماماً بل تنشأ عن أفق جماعي عامّ، حيث جماعة من القرّاء يَصدرون عن أفق تاريخ واحد وتُحرّكهم هواجس إيديولوجية متشابهة، كما أنّهم مشتركون في مجموعة من الغايات والمصطلحات الفنّية و إستراتيجيات القراءة ممّا يسمح بالوصول إلى نتائج مشتركة وتأويل متشابه[3].

*أنّ فعل التلقيّ لا يتحقق من خلال التفاعل بين النّص والقارئ بل من خلال التفاعل بين جماعة من القرّاء و أنماط التلقيّ المتعاقبة، أيّ أنّه يتحقق من خلال التفاعل بين النّص

---

[1] -ينظر: قراءة النّص و جماليات التلقي بين الم>اهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة .لد. محمود عبّاس عبد الواحد ص 24 و 25

[2] -المقامات و التلقيّ ـ بحث في أنماط التلّقي لمقامات الهمداني في النقد العربي الحديث ـ لد. نادر كاظم ـ دار الفارس ـ عمّان. الأردن ط01: 2003م ص 23

[3] –المرجع نفسه ـ لد. نادر كاظم ص23

والقارئ و القارئ اللاّحق من جهة و بين القارئ والقارئ السابق من جهة أخرى، فلَكأنّ هذه النظرية هي همزة وصل و تقاطع بين جلّ القراءات مهما اختلف زمن ورودها.

*أفق التوقّع:(يعتبر من أهمّ أسسها و أوّلها و يعني الاندماج بين التاريخ و الإستطيقا، حيث يستعمله "ياوس" للدّلالة على بنية التوقّعات التي يستحضرها الشخص حين يجد نفسه أمام نصّ من النّصوص، وهكذا قارئ الأدب يواجه النّص حين يقرأه بأفق ما من آفاق التوقّع ،على أنّ العمل الأدبي قد يكسر أفق التوقّع ذاك فيصاب القارئ بالخيبة، كما قد يؤدّي هذا الكسر إلى تشكّل أفق جديد)[1]؛ولعلّ هذا ما نلاحظه و بشكل جلّي في كتاب لبيان والتبيين للجاحظ إذ أنّ القارئ له يُباشر في قراءته له على أنّه مؤلَف ضمّ البلاغة وما يعنيها ولكنّه و أثناء تصفّحه ذاك يُصاب بالخيبة ويُكسر توقُعه الأوّل ليتشكّل لديه توقّع جديد قائم على حُكم أنّ الكتاب هذا يحوي أخباراً ودروس و أحداث فهو مختلط المواضيع وهذا الاختلاط يعقبه عدّة كسور للتوّقعات المختلفة ،فهو سلسلة غير منتهية من التوقّعات كذلك كونها نظرية نقدية لأنّها تقوم على رفض أشياء و تقبّل أخرى وهذا كله من قِبل السلطة الحاكمة هنا " القارئ" وفي معظم الأحيان وإن استوجبت هذه النظرية شروطها الكاملة

---

[1] -ينظر:نظرية القارئ وقضايا نقدية و أدبية ـ لد. السيّد إبراهيم ص 15

أهمّها القارئ النموذجي فإنّ النقد فيها يكون بنّاءاً خلاَّقاً دافعاً لإبداع جديد من نظرة مختلفة عن التي سبقتها؛ لذا فهي وكما يُصطَلَح عليها بنظرية الاتصال ،وهذا راجع إلى أنّ عملية الأخذ و العطاء الحاصلة بين كلّ من النّص و القارئ هي بمثابة الاتصال القائم بينهما.[1]

ب ـ أنواع القارئ في نظرية التلقيّ:

ـ اتخذت الاتجاهات الحديثة ما بعد البنوية وركّزت على دور القارئ في استقبال النّص وتفسير مقاصده و ضرورة تفعيل دوره و استثمار طاقاته ، ولا سيما في الجانب التفكيكي المبني على تعدّد القراءات، فهذه النظرية تنفي وجود قراءة وحيدة صحيحة موثوقة أيّ أنّ النّص بنية تشارك في تشكيلها قرّاء[2] عدّة وهذا ما رأيناه آنفاً، حيث يقول إيزر"" أنّ القارئ والكاتب يتقسمان بالتساوي لعبة الخيال ولكن يكون لهذه اللّعبة محلّ إذا ما أفاد النّص أنّه أكثر من قاعدة للَّعب"[3]ومعنى هذا أنّ النّص عبارة عن أرضية يُمثّلها ويُعيد تشكيلها القارئ ،وحين يفتقد قدرته على إعادة إنتاج النّص بصورة متعددة لا منفردة يصبح هنا قارئاً سلبياً كما يقول عبد القاهر الجرجاني مجرّد رواية،بل هو أشبه بالدفتر ولم تكتفي بهذا لاهتمام المركّز بالقارئ ودوره الإبداعي إنّما تجاوزت هذا لوضع أنواع لهالتي سندرجها لمسامعكم الطيِّبة كالآتي:

1. **القارئ الكُفء:**

ـ وهو ما إصطلحه "جونتان كولر"وهو الذي يتمثّل خير تمثّل لأعراف القراءة واستراتجياتها وأدواتها و مصلحاتها في لحظة تاريخية محدّدة،كما جاء مع "ناصيف اليازحي في ـ التلقيّ الإحيائي ـ وأنور الجندي و شوقي ضيف في ـ التلقيّ الإستبعادي، ومحمد رشدي و عبد المالك مرتاض في ـ التلقيّ التأصيلي ـ

2. **القارئ القويّ:**

ـوهو المصطلح الذي أتى به " هارولد بروم" ،ومعناه القارئ الذي لا يستجيب لمحاولة الهيمنة التي يفرضها نمط التلّقي العامّ و أفق القراءة السائد، بدلاً من الاستجابة

---

[1] يراجع:التلّقي و السياقات الثقافية ـ بحث في تأويل الظاهرة الأدبية ـ عبد الله إبراهيم ـ منشورات الإختلاف ط02: 1426هـ ـ 2005م ص9

[2] -إشكالية التلقيّ و التأويل ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ـل.سامح الرواشدة ـ أمانة عمّان ـ عمّان .الأردن ـ ط: 2001م ص 141 ـ 142

ولانصياع لإكراهات القراءة الجماعية المهيمنة، يعمد هذا النّوع من القرّاء إلى مجابهة هذه الهيمنة من أجل التعبير عن قراءاته الخاصّة و المختلفة عمّا هو سائد ،ومن هنا فقرّاء هؤلاء تكون أول بادرة لهم هي الاعتراض على نمط التلقيّ العامّ و أول تعبير عن عجز هذا النمط عن مسايرة المتغيّرات الأدبية و القراءة المتسرعة.[1]

3.القارئ الضمني:[2]

ـ وهو القارئ الذي يملك دور وخبرة في تأويل العمل الفنّي وتحديد أبعاده وهذا بغية الوصول إلى مقاصد النّص وفكّ شفراته و الغور في غماره المفهومية المختلفة

4.2- أهمّ نقاط تقاطع الجاحظ مع نظرية التلّقي:

ـ الشيء الأكيد هو أنّ العديد من الأذهان ستستغرب هذه النقطة كون أنّ نظرية التلّقي حديثة التكوين والجاحظ وفته النيّة قبل ميلادها، لكنّ المُتتبّع لتراثنا النقدي لن يستغرب هذا العنصر كون أنّ تراثنا النقدي القديم لا يخلو من هذه النظرية، فكانت عند العرب قديمًا مقترنة بالشعر وطريقة إنشاده، الخطب وطريقة إلقائها...وعليه فعملية الإنشاد أو التلقيّ هما وسيلتا الّقي بالنّص أو الدّنو به أسفل السافلين، فبموجبهما تحدث عملية التواصل وتقوى الروابط بين الباثّ والتلقيّ ،وقد وجدنا أثناء مسيرتنا البحثية هذه أنّها تبلورت عند الجاحظ عامّة من خلال كتابه البيان و التبيين أكثر فأكثر ولا خير دليل ما سلف ذكره

* فأوّل نقطة التقائهما هي مشاركة المتلقيّ في الإبداع فكما رأينا منذ وهلة قليلة أنّ هذه النقطة و إحدى إجراءات النظرية، فالجاحظ بدوره يؤكد على ضرورة استدراج القارئ من خلال قراءته للنصّ إلى تفجير كلّ مكنوناته الذهنية المخزّنة والإسهام بها لخلق نصّ جديد قائم على أساس فهمه للنّص انطلاقا من التعايش الكلّي والانسلاخ من الواقع للغوص في روح النصّ المقروء وتجلّت فعّالية الإجراء القرائي للنظرية على حسب الجاحظ في مآخذ هي:"القرآن، الحديث، الشعر ،الفلسفة..."[3]

*نجد قضية المبدع ،ففهم النصّ يعتمد أساساً على فهم المبدع، وذلك من خلال عملية الاختيار في المادة التي يقدّمها له النظام اللّغوي، ومعناه هنا أنّ المبدع و أثناء

---

[1] -ينظر: المقامات و التلقيّ ـ بحث في أنماط التلقيّ لمقامات الهمداني في القد العربي الحديث ص15

[2] -إشكالية التلقيّ و التأويل ـ دراسات في الشعر العربي الحديث ل. سامح الرّواشدة ص 142

[3] -ينظر: نظرية الشعر عند الجاحظ ـ لد.مريم محمد المجمعي ـ دار مجدلاوي ـ عمّان الأردن ـ ط01: 2010م ص 144

شروعه في عملية الإبداع ذاك لا بدّ له أن يلعب دورًا مزدوجًا آلا وهو دور المؤلف ومن جهة أخرى دور المتلقيّ، ليرى مدى تأثير أسلوبه في القارئ، أمّا الجاحظ فقد راما في كتابه إلى مراعاة المتكلّم و السامع أيّ بالمفهوم المعاصر المبدع والقارئ، ويظهر حين ذكر لنا كيف (أنّ عبد الله بن الحسن حدث معه موقف إذ قام فخطب بإيجاز شديد وهذا التصرّف لم يعجب السامعين ،فسُئل [1] لماذا هذا التصرّف رغم أنّه قادر على الإتيان بخطبة رائعة فقال بمختصر الحديث أنّ المقام ذاك لا يسمح وللإشارة فالمقام هنا كان مقام حرب)

*القارئ القدوة، فالقارئ القدوة في النظرية هو الذي يحسن فهم النصّ وتركيب بنياته، والجاحظ كذلك وردت عنده هذه النقطة تمثّلت حين نصَّ على موازاة قدر المستمعين لأقدار الكلام أيّ لكلّ مبدع كلام خاصّ به ورفض رفضًا قاطعًا أن يُعرض مثلاً كلام العلماء و أصحاب الصنعة على العمّة من النّاس وهذا لانعدام قدرتهم على فهمه، وبالتالي قد يحطّون من قيمة العمل الإبداعي ذاك

* وهناك تقاطع آخر تجلّى في امتلاك المتلقيّ خاصّية التوقّع والانتظار فكلّما قدّم المبدع ما يخالف توقّعاته وإنتظاراته كلّما امتلك قمّة البيان الأسلوبي وهو عبارة عن مجموعة من الطاقات يسعى المتلقيّ للكشف عنها، وورد نصّ للجاحظ خاصّة في الجزء الرابع من كتابه إذ يقرّ بأنّ الغرابة في النّص و الاندهاش سرّ العذوبة والإبداع في مجمل قوله ويظهر من خلال المقطع التّالي:"...كلّ شعر فيه غريب أو معنى يحتاج إلى الاستخراج..."،[2] فكان الجاحظ أبرع من طبّق هذا الإجراء من خلال مختلف استطراداته التي تجعل ذهنية القارئ في اندهاش و توقّع دائمين.

* تميّز النّصوص بالإثارة أحد ما تنصّ عليه نظرية التلقيّ،[3] إذ أنّ الشرط لكي تكون قراءة المتلقيّ مشاركة في العمل الإنتاجي هو تميّز النصوص واحتوائها على النبض والحركية الدائمة ،وهذا ما ندّد به الجاحظ لدفع الملل من خلال إخراج القول من جدّه إلى هزله أحياناً، وإتّباع كلّ شعر بليغ يُشعر بالضحك والسرور وهذا من ما تحدث

[1] -ينظر: البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون ص 211
[2] -ينظر: البيان و التبيين ج4 لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: هارون عبد السلام ص 15
[3] -نظرية الشعر عند الجاحظ - لد. مريم محمد المجمعي ص 141

عنه في قصّة هجاء بشّار بن بُرد سبق و تعرّفنا عليه وللإشارة(فبشّار بن بُرد فارسي الأصل يُنسب إلى بني عُقيل،[1]

وُلد أعمى، لكنّ نشأته كانت عربية، عُرف بفصاحته اللسانية حيث تعلّمها من بدو العرب، أُشتُهر شعره بغرض الهجاء، وُلد الستة والتسعين هجري وتوفي حوالي الثمانية والستّين والمائة للهجرة.)

*التقى الجاحظ مع نظرية التلقيّ في الاهتمام بالتلقيّ إذ أنّها ركّزت وفصّلت وعنت بالقارئ عناية فائقة فهو الحَكَمُ الذي يحكم على ذاك العمل بالرداءة أو بالجودة، وتحضرني في هذا المقام حُكم الرّسول صلّى الله عليه وسلّم على قول قاله لبيدأنّه أصدق كلمة قالها، والقول هو :أَلاَ كُلُّ شيء مَا خَلاَ الَّهُ بَاطِلُ *** وَكُلُّ نَعِيمٍ لاَ مَحالَةُ زَائِلُ ؛فهنا كان الحكم بالجودة من القارئ وهو في هذه الحالة الرّسول عليه الصّلاة والسلام، فالقارئ هو الذي يلعب دور ملأ الفراغات لتكميل بنية النّص، وهذا ما جاء عند الجاحظ حين اهتمّ كثيرًا بالمتلقيّ الذي ذُكِر عنده ب السامع، وقد أصدر أقوالاً وأحكاماً تنصّ على تبسيط النّص وإبعاده عن كلّ ما يعقّده وهذا كي يُفضي للسامع فهمه.

*و نقطة استطعنا استحضارها في هذه الدراسة تجلّت في مسألة الطرافة والغرابة إذ يركّز الجاحظ على أنّها العنصر المحرّك لنشاط ذهنية القارئ، ونقطة جذب للمتلقيّ، فإذا اجتمعا تولّدا عنهما الوهم لأنّ النّاس بطبيعتهم ينجذبون إلى كلّ شيء غريب طريف، ونلمس حضور هذه النقطة كذلك عند حازم القرطاجني حين يقرّ أنّ الطرافة والاستغراب منبع العملية التواصلية والتأثير في المتلقيّ، ووردت مقولة للجاحظ ضمّت الكلام المشروح أعلاه كانت: "الشيء في معدنه أغرب، وكلّما كان أغرب كان أبعد في الوهم..."يقصد بكلامه ـ في غير معدنه ـ أيّ ورود الكلام في غير معناه الأصلي ما يقابله مصطلح المجاز أو البيان بصورة أخصّ[2].

---

[1] -الشعراء العرب ج1 لفوّز الشعّار ـ دار الجيل ـ بيروت.لبنان ـ ط01: 1420هـ ـ 1999م ص 132
[2] -ينظر: نظرية التلقيّ في تراثنا النقدي والبلاغي ـ د. شعبان الحكيم محمد ص38

*وتظهر نقطة التقاء بينهما إن صحّ القول في كون أنّ نظرية التلقيّ اهتمت كما تعرّفنا سابقاً(بالقارئ إلى جانب تعاونه و ترابطه مع باقي عناصر العملية الإبداعية أيّ العلاقة بين كلّ من المؤَلِف، النّص ،القارئ؛) كذلك ما جاء به الجاحظ في جلّ مؤَلَفاته عامّة ووّضحه وجسّده بصفة أخصّ في البيان و التبيين وذلك من خلال حثّه للمؤَلِف [1].

أن يستصيغ جمله و عباراته بأسلوب بسيط قريب لفهم السامع نافٍ لغموض الذي قد يتضمّنه بعض المؤلفين في خضام النّصوص الأدبية ،أمّا من حيث النّص فهذا من خلال دعوته إلى الابتعاد عن التكلّف ،واختيار الألفاظ الوحشية الغريبة، فجمالية النّص وقمّة إبداعه حين يكون سهل الألفاظ قويّ الدّلالات، وكلّ هذه الاهتمامات أو التبريرات الصادرة عن كيفية صياغة الكلام وصناعته، وكيف أنّ المؤَلِف يقوم بإنجاز كلّ خدمة للقارئ بالدرجة الأولى والأخيرة ،وعليه نجد الجاحظ قد اهتم بجميع عناصر العملية الإنتاجية الأدبية دون تفرقة أو تباين وهذا تماماً ما قامت به نظرية التلّقي فيما بعد بأسس منهجية علمية.

*ونجد للجاحظ نقطة تشارك أخرى بينه و بين النظرية المتمثلة هذه المرّة في إحدى أسسها فكانت "أفق الانتظار "أو كما يُصطلح عليه ب أفق التوقّع ،وقبل أن نمثِّل لوروده عند الجاحظ وبطريقة غير مقصودة لا بأس أن نعرِّج على ماهيته؛ إذاً فأفق الانتظار هو أن يكون القارئ في صدد قراءة نصٍّ ما يدخله بتوقّع معيّن وغالباً ما يتشكّل هذا الأفق انطلاقا من العنوان الرّئيسي؛ فمثال القارئ الذي يتصّفح كتاب في السياسة فأوّل توقع يتكون لديه هو أنّ هذا النّص يحوي موضوعات سياسية، ولكن قد تتخلّله بعض من مجالات أخرى لتداخل بينه وبينها، هنا يحدث ما يسمّى بكسر التوقّع، أيّ نظرة القارئ الأولى تُكسر ليتكوّن على إثرها أفقاً جديداً ؛كذلك نجده يحوي ما يسمّى بالخيبة ويحدث هذا بكثرة في النّصوص الرِّوائية؛وبما أنّ كتاب البيان والتبيين قد ضمّ العديد من الروايات فإنّنا نجد له موقعاً سنوضحّه بعد حين من خلال الأمثلة؛ و الخيبة كما قلنا هي أن تصل القضية أو مجرى النّص الأدبي إلى موصل عكس الذي تخيّله وتوقعه القارئ.

---

[1] -يراجع: التلقي و الإبداع - قراءات في النقد العربي القديم - ل. محمود درابسة - دار جرير - عمّان.الأردن - ط01: 1431هـ - 2010م ص17

ـ هذا فيما يتعلّق بماهية أفق التوقع ،ونلمس حضور هذا في كتاب البيان و التبيين من خلال بعض الأمثلة ؛مثلاً كسرد الجاحظ لنا قصة سيّدنا موسى عليه السلام و مشكلته اللّسانية تلك التي أصابته وكيف أنّها حُلَّتْ وشُفي منها بإذن الله ويتجلّى هذا في قوله: **"وما أعطى الله تبارك و تعالى موسى عليه السلام من الحجّة البالغة ومن العلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة ،إلى أن حلّ تلك العقدة.."**،وكذا قصة أبو حذيفة الذي رام إسقاط الرّاء من كلامه ومدى اجتهاده في التغلّب عليها و كان له ذلك في الأخير ،ليجمع بين هاتين القصّتين و قصّة مشابهة لهما هي قصة واصل بن عطاء ومشكلته النّطقية كذلك إذ يقول **:"ولمّا علِم واصل أنّه ألثغ فاحش اللّثغ ،وأنّ مخرج ذلك منه شنيع..."** وكيف أنّه عان الأمرّين وكيف اجتهد للتغلّب عليها خصوصاً لأنّه كان متحدّثاً من المعتزلة، وفصاحة اللّسان أهمّ سلاح يتسلّح به المتكلّمون لمجابهة الفرق الأخرى ،فهنا القارئ وعند قراءته للقصّتين الأوّليّتين سيكوّن توقعاً انطلاقا من قصّة سيّدنا موسى و قصّة أبو حذيفة ،آلا وهو أنّ واصلاً سينجح في التغلّب على تلك المشكلة كما نجح الآخرين[1]، لكنّه ـ القارئ ـ سيصاب بالخيبة عند متابعته القصة إذ سيتضّح له أنّ واصلاً لن يتغلّب على هذه المشكلة بل سيواصل حياته ألثغاً؛ هنا حصلت للقارئ خيبة و كُسر توقعه الأوّل وتشكّل توقع جديد المذكور أعلاه أيّ بقائه ألثغاً .

ـ كما عثرنا على مثال آخر يوضحه نقطة التشارك هذه فكان هذه المرّة لمّا تعرّض للفظة البُرّ ِوكيف أنّ واصلاً سمّاها ب القمح مع أنّ هذه ليست بلهجته الأصلية ،ليتعمق الجاحظ في عدّة أقوال خصّت هذه اللّفظة كقول عائشة رضي الله عنها قالت:" **ما شبِع رسول الله من هذه البرّةِ السَّمراء حتى فارق الدّنيا"**[2]فالقارئ يبلني توقعه في هذه الحالة آلا وهو أنّ الجاحظ في هذه المحطّة سيذكر و يهتمّ بلفظة البُرّ و تسمياتها المختلفة لكنّه سرعان ما يصاب بالكسر لتوقعه ذاك وهذا لمّا ينتقل بنا الجاحظ إلى قضية كلام أهل الكوفة ومقارنته بكلام أهل البصرة فيقول: **"ولو عَلِقَ ذلك لغة أهل البصرة إذ نزلوا بأدنى بلاد فارس وأقصى بلاد العرب كان ذلك أشبه، إذ كان أهل الكوفة إذ نزلوا بأدنى بلاد النبط وأقصى بلاد العرب"** ؛هذا ولا يكاد كتاب البيان و التبيين يخلو من آفاق التوقع و كسرها و

[1] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن محبوب الجاحظ ـ تحقيق:محمد هارون عبد السلام ص 14 - 15
[2] -المصدر نفسه ص 18

توفر الخيبات فيها وهذا كلّه ناتج بالدرجة الأولى عن طبيعة منهجه الاستطرادية المبنية على ذكر عدّة مواضيع و قضايا ويكون هذا الذكر مُفاجئاً غير متوقع ما يُحدث كسراً في هذه الحالة.[1]

*ويقترب الجاحظ مع نظرية التلقيّ كذلك من خلال مبدأ آخر لها تمثل في ما يسمى **وقع الأثر**، ومعناه أن يترك ذلك النّص الأدبي أثراً في نفسية المتلقي إمّا بالسلب أو بالإيجاب،ولعلّ هذا بالفعل ما نلمسه في كتاب البيان و التبيين إذ أنّ أبرز قضية نأخذها كمثال ذكرها لنا أبو عثمان تركت أثراً و ستترك في نفسية أيّ متلقي عامّة والعربي خاصّة، لمّا تطرّق لمسألة الشعوبية بحيث نقل لنا صوراً لنبذ الشعوبيين العرب وطعنهم في عادتهم و تقاليدهم سواء من خلال فنونهم أيّ صناعتهم للشعر و نقدها أو من خلال لباسهم، ويظهر هذا في قول الجاحظ:" بمطاعنهم على الخطباء العرب، بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام، ومناجلة الخصوم بالموزون المقّفى، والمنثور الذي لم يقفَّ[...]ولزومهم العمائم في أيّام الجمع، وأخذ المخاصر في كلّ حالٍ..."[2] ؛فالقارئ لهذه النقطة هنا المدرك لها ولمعانيها أكيد سيتحرّك فيه الضمير العربي و يتفاعل مع هذا النّص من خلال تكوين نظرة محايدة للشعوبية، وبالتّالي تكوين موقف دفاعي عن العربي و أصوله و تقاليده و حمايتها من تضارب هذه التناقذات والأقوال الشعوبية التي كان همّها الأوّل و الأخير تدمير صورة العرب و تشويه ماضيهم وماضي أسلافهم. كذلك لمّا تعرّض لموضوع الخطبة عند الرّسول صلى الله عليه وسلّم[3]

وهذا بإدراجه عدّةً من نماذج للخطب عنده عليه الصلاة و السلام مثال قوله صلى الله عليه وسلّم:"ارْحَمُوا عَزِيزاً ذُلَّ ارْحَمُوا عَالِماً بَيْنَ جُهَّالْ"[4]وخطب أخرى ،فالمتلقي هنا يتفاعل ويتأثّر بمدى بلاغة ،فصاحة، إيجاز كلام أنبل البشر ومدى قوّته في المعنى و الدّلالة وأنّه فعلاً يستحق لقب خطيب الأمّة الإسلامية ؛فالجاحظ حقّق هذه النقطة من خلال لعبه على الأوتار الحسّاسة للإنسان العربي ،فها نحن نجده قد عالج معظم القضايا التي لها علاقة

[1] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: محمد هارون عبد السلام ص18
[2] -البيان و التبيين ج3 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: محمد هارون عبد السلام ص6
[3-البيان و التبيين ج2 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: محمد هارون عبد السلام ص 28

إمّا بالدّين أو بالأصل العربي "العروبة"، ويكفينا دليلاً على أنّ هذه النقاط جدّ مؤثرة في العربي مهما امتاز طابعه بالهدوء.

*ويلتقي الجاحظ مع هذه النظرية في مبدأ **أفق البياني** الذي يُعتبر من أهمّ مبادئها فبه تكسب النظرية طابعاً جمالياً فنّياً إضافة إلى التأثيري الذي يُحقق من قبل النقطة السابقة، ومعناه أن يساهم ذاك الأثر الأدبي في بناء شخصية مبدعة للقارئ وتتجلّى هذه الشخصية من خلال مشاركته في تحليل و تأويل ذاك النّص أو في مجموعة من المعارف التي ستساعده فيما بعد على خلق روح إبداعية فيه من العدم أو تطويرها إن كانت موجودة لديه ،ولو أتينا إلى البيان و التبيين لوجدناه عبارة عن مقنّن وواضع لأسس جمالية تحوّل الكلام من عادي إلى كلام إبداعي، ولعلّ من أهمّ ما إهتام به الجاحظ هو اللّفظ من حيث حثّ على اختيار اللّفظ المناسب لسهل البسيط والابتعاد عن كلّ ما هو وحشي غريب لأنّ هذه الأشياء مانعة البيان فهو الذي يعرّفه لنا: "**البيان اسم جامع لكلّ شيء كشف لك المعنى وهتك الحجاب دون الضمير[...]لأنّ مدار الأمر الغاية التي يجري إليها السامع إنّما هو الفهم والإفهام"**[1]؛ودعا كذلك إلى ترابط وتحقيق الوحدة العضوية في أيّ نصٍّ خاصّة الشعري وهذا يظهر في قوله:**" وأجود الشعر ما رأيته متلاحم الأجزاء ،سهل المخارج فتعلم بذلك أنّه أفرِغ** [2]

إفراغاً واحداً ،فهو يجري في اللّسان كما يجري الدهان..."فانطلاقاً من النّص المأخوذ كمثال يتضِّح لنا أنّ القارئ وخاصّة الذي له علاقة بالمجال الأدبي الفنّي فإنّه سيحصل بما لا شكّ فيه على مخزون معلوماتي من شأنه مساعدته في منحه الجمالية للإنتاج الذي سيقوم به ،فالشاعر مثلاً أو المتلقي الذي له هواية نظم الشعر سيُؤسس و بناءاً على النّصوص المذكورة في البيان قاعدة لنظم و صناعة الكلام من أكبر البلاغيين وإمامهم ـ الجاحظ ـ.

ـإذاً هذه النقاط كانت وفقًا على مفهومنا الخاصّ وتحليلنا الشخصي لبعض المواد العلمية التي حصّلناها من خلال عملية بحثنا هذه وقد خرجنا على إثرها بعدّة نتائج من أهمّها مايلي:

- شدّة تأثير الجاحظ على القدماء عامل إيجابي وفعّال في إضافة مؤلفات ضخمة لخزانة الأدب العربي.

[1] -البيان و التبيين ج1 لأبي عثمان عمرو بن بحر محبوب الجاحظ ـ تحقيق: محمد هارون عبد السلام ص 76
[2] -المصدر نفسه ص 67

- ارتباط مجال نظرية التلقيّ بالفندقة كبداية تنّم عن تطوّراتها القادمة.
- إحياء النّص الأدبي وإعادة بناء أرضيته من طرف نظرية التلقيّ.
- تقييد الماركسية للنّص الأدبي والقارئ دافع قويّ في تشكّل نظرية أعادت الاعتبار إلى العمل الأدبي.
- تمحور العمل الإبداعي في نظرية التلقيّ على العنصرين "النّص و القارئ".
- نقاط تقاطع الجاحظ مع نظرية التلقيّ دلالة على انبثاقها من الجذر العربي لكنّها نمت على أيدٍ غربية.
- اهتمام الجاحظ بالسامع و تفضيله على المتكلّم ووضعه أحكاماً تقييدية له خدمة للسامع.
- الغرابة في النّصوص الأدبية أصل حركيتها ومنبع القوّة التأثيرية في القارئ.

المشاركة في صنع المعنى، حريّة القارئ، وظيفة المتعة الجمالية من أهمّ إجراءات النظرية.

انطواء العمر المنهجي على ثلاثة لحظات: لحظة المؤَلَف أي النقد التاريخي ؛النّفسي؛ الاجتماعي في القرن التاسع عشر ،لحظة النّص أيّ النقد البنائي "البنيوي"، ولحظة القارئ أي ما بعد البنيوية.

اعتبار القارئ نقطة البداية لفهم العمل الأدبي في نظرية التلقيّ.

- للعمل الأدبي قطبان؛ قطب فنّي متمثّل في الكاتب؛ وقطب جمالي يقف على مدى إدراك ذاك العمل الفنّي من قبل القارئ.

-وفي الأخير ما علينا القول إلاّ أنّ هذه النقاط هي بمثابة قطرة ماء في بحر، فأكيد هناك نتائج أخرى لكنّ هذا ما أمكننا الحصول عليه لحدّ الساعة، وبهذه الكلمات تُختم فصولنا بمشيئة الله على أمل أن نكون قد وُفّقنا ولو لحدّ بسيط في الإحاطة ببعضٍ من جوانب هذه الدراسة.

الخاتمة

الحمد لله أنّ لنا ربّاً إذا أُغلِقت الأبواب لا يُغلق بابه، وإذا انقطعت الأسباب جاء مداده، وإذا قسّت القلوب نزلت رحماته؛ فنحمده و نشكره الذي أمدّنا بالقوة و الإرادة لتكملة هذه الدّراسة، ونحمده على عطائه و نعمه علينا، الحمد لله الذي أعطانا نعمة الصبر ونعمة الكلام لنخطّ هذه الأسطر، الحمد لله الذي مدّنا بنعمة العقل كي نفهم دراستنا و ننقلها إلى الجانب الآخر؛ وبهذه الكلمات نكون قد قاربنا غلى طوي صفحات هذا البحث، ولكنّ قبل هذا الخروج لا بأس أن يكون خروجاً حسناً ًلتطرّقنا و استخراجنا بعض النقاط الملّخصة فكانت بعون الله كالتّالي:

* تمثّل الأدب في العهد العبّاسي في ثلاثه أدباء و مؤلّفين هم أبو عبيد معمّر بن المثّنى، ابن محمد المدائني وهشام بن محمد الكوفي.

*العصر العبّاسي جسر تنّقل الكتابة من مرحلة المشافهة إلى مرحلة التدوين.

*شيوع تدوين الملاحظات النقدية و البلاغية في عصر الأمّة الذهبي.

*يعدّ كتاب البيان و التبيين للجاحظ بمثابة الخزّان للموروث العربي وهذا بشهادة كبار المؤلّفين الأدبيين.

*ظهور الشعوبية في العصر العبّاسي دافع لميلاد كتاب البيان والتبيين.

*المناهج القديمة أساس ظهور و بروز المناهج الحديثة و تكوّنها على هذه الصورة المتطوّرة المقننة المُحكمة.

*المناهج الحديثة بمثابة المُقنّن و المُكمِّل لما سبقها من المناهج الأخرى.

*اقتصرت الكتابة قبل مجيء الجاحظ على أهل القصور فقط كما فعل ابن المقفّع، ليأتي الجاحظ و يحوّلها إلى كتابة شعبية تختّص بعامّة النّاس وتهتّم بشؤونهم المتباينة.

*نشأة المنهج الاستطرادي على يدّ السموأل بن العد ياء وكان في الجانب الشعري أمّا الجاحظ فطبّقه في الجانب النثري كما سبق وأن رأينا.

*ورود تعريف الاستطراد في كتابات القدماء[المصري؛ ثعلب...] دلالة على مدى قدمه وعراقته، لكنّه كان يُطبّق في الشعر.

*مجالات الأسلوب الاستطرادي هي ثلاث: المجال الشعري، المجال النثري، مجال النسب.

*يُبنى الاستطراد على قيام رابطة بين القضايا المُستطرد فيها، شريطة العودة إلى القضايا الأمّ وإلاّ فهو تمادٍ و خروجٍ.

*ورود المنهج الاستطرادي تحت اسم التفريع عند ابن رشيق القيرواني من خلال العمدة.

*اهتمام الجاحظ في كتابه بالمجال البياني "الجدل، الخطابة..."وعرضه بصورة استطرادية.

*كثرة استطرادات الجاحظ أضاعت الثمرة المرتجاة منه لعُسر فهمه من الجمهور المتلقيّ.

*إستطرادت الجاحظ لم تكن جافّة ممّلة إنّما حوت و ضمّت مميّزات ارتقت به رغم عدم اتصافها بالعلمية و ربّما هذا راجع إلى مرحلة نشوئه أيّ مرحلة خمود الدّرس البلاغي.

*تميّز الأسلوب الاستطرادي عند الجاحظ بالعذوبة، السلاسة، الطرافة عن طريق مميّزاته تلك كالأسلوب الحكائي، الخلط بين الجدّ والهزل، الابتعاد عن التكلّف وغيرها.

*البساطة و الوضوح سرّ جمالية كتاب البيان و التبيين حيث غطّت و تغلبت عن النّقص الموجود فيه.

*هناك ضربان للسخرية: الهزل الذي يُراد به الجدّ وهو المرغوب فيه و الهزل الذي يُراد به الهزل الذي قال عنه الرّسول صلى الله عليه وسلّم "الضَحِكُ يُميتُ القُلوبَ".

*عدم قدرة الجاحظ على التحكّم في مدى ثقافته التي كانت تنساب منه بتدفّق كبير أثناء كتابته.

*رغبة الجاحظ في الوصول إلى تقعيد يحكم البلاغة لكنّ استطراداته حالت بينه وبين تلك الرغبة.

*تأثّر الجاحظ ببيئته و محيطه و انعكاسه على جلِّ كتاباته.

*أساس البيان عند الجاحظ هو الوضوح، الفهم والإفهام فإذا تحقّقت هذه الشروط اكتملت آلته.

*تعرّض الجاحظ للمشاكل النطقية دلالة قاطعة على تنوّع مواضيع هذا المؤَلَف فهو لم يكتف بالجوانب الأدبية وحسب إنّما تعدّها ذاكرًا العلمية على حدٍّ سواء.

*أتت الدّلالة عند الجاحظ مقسّمةً إلى خمسة أقسام: اللّفظ، الخطّ، العقد، الحال، الإشارة.

*قدّم لنا أبا عثمان تعريفات عدّة تخصّ البلاغة من مختلف الأقوام، إضافة إلى تعرّضه لبشر بن المعتمر وهو يقنّن للبلاغة في صحيفة له،كما أنّه عرض لنا بعضًا ممّا يشوّهها.

*تطبيقه لرؤية نقدية مقياسها الفصاحة و البيان و الرّقي الإبداعي من خلال كتابه هذا.

*انتصار الجاحظ للصناعة و الصياغة الكلامية المُتقنة.

*اهتمام الجاحظ بالخطابة و كلّ ما يتعلّق بها من صفات الخطيب، هيئته، وكلامه الذي يُشترط فيه الالتزام بالقواعد النّحوية ،اللّجوء إلى البساطة و عدم التكلّف و الابتعاد عن المبالغة قدر المُستطاع.

*ارتباط الخطابة بالعامل النّفسي.

*قيام استطرادات الجاحظ على أساس وجود روابط ولم تقم على القطيعة مطلقًا، وإن دلّ هذا على شيء إنّما هو دالٌّ على مدى نباغته و قوّته على تحقيق الانسجام لكتابته.

*للاستطراد ثلاثة أنواع: كلّي وهو الخروج المؤقت من قضية ما والدّخول في أخرى مغايرة لها تماماً؛ استطراد جزئي وهو توّسط قضية أو عبارة تابعة لموضوع أسبق استطراد تعمّقي وهو تناول قضية من جانبها العامّ ثمّ التوّغل فيها لذكر التفاصيل عنها.

*تأثّر الجاحظ بالثقافة اليونانية انعكس على أسلوبه الكتابي من خلال أحد مميّزاته أيّ الطريقة الجدلية.

*استطراد الجاحظ كان بمثابة الشمعة التي تحرق نفسها لتضيء على الآخرين.

*الأسلوب الاستطرادي سِمَة من سيمات أسلوب التلقين أيّ التعليم.

*تأثير منهج الجاحظ على الأدباء القدماء دافع قويّ لتنمية وتطوير و إثراء خزانة الأدب بمؤلفات بلاغية ضخمة مثال العمدة لابن رشيق القيرواني.

*رغم معارضة القدماء للمنهج الذي أتى به كتاب البيان و التبيين إلاّ أنّ هذا لم يمنعهم من التأثّر بالكتاب و الإشادة بمزاياه و فوائده كتأثّر أبي الهلال العسكري به وغيره.

*ورود كتاب ابن وهب "البرهان في وجوه البيان "تحت اسم مغاير له"نقد النثر".

*ارتكاز نظرية التلقيّ على ثنائية العملية الإبداعية "النّص و القارئ".

*اهتمام الجاحظ بالقارئ "السامع" والنّص كان أوّل بوادر نظرية التلقيّ.

*ارتباط نظرية التلقيّ في بادئ أمرها بالمجال الاقتصادي أيّ الفندقة ليُطلق عليها آنذاك اسم" نظرية الاستقبال".

*إعادة الاعتبار للنّص الأدبي من قبل نظرية التلقيّ ولمّ شتاته بعد أن هدّمته النظرية الماركسية.

*الغرابة في النّصوص الأدبية أصل عذوبتها و سرّ جماليتها التأثيرية.

*لنظرية التلقيّ جذور ضاربة في الأصالة العربية، فهي بهذا ذات منبت عربي بتشكيلٍ غربي.

ـ إذاً و أخيراً وليس آخرًا ها نحن نُسدل الستار على هذه الدّراسة آملين أن نكون قد وُفّقنا إن شاء اللّه في إعطاء البحث ولو ذرّة من الاهتمام الذي يستحقّه، ومهما وصفنا ومهما قلنا أو بحثنا فستظلّ هذه الدّراسة دائمًا كقطرة ماء في بحر كثُرت مياهه و قوت أمواجه؛ فإن وُفِقنا فالحمد لله و بعونه سبحانه وإن قصّرنا فنستسمحكم عذرًا، يبقى الكمال للّه وحده، وشكرًا إلى كلّ من عنى بهذه الدّراسة و ساهم في تقديمها إلى مسامعكم الطيّبة، سائلين المولى التوفيق و السداد و الرِضا عنّا و عن كلّ من اتبع طريقه المستقيم

ـ فاللّهمّ هب لنا نفوسًا راضية؛ وصدورًا من الهموم خالية؛ وقلوبًا بحبِّك صافية؛ وأتمم علينا العافية؛ وكيف يا ربّي يخيب ظنّي وأنت مدبّر لي أمري؛ فاللّهمّ أكتب اليُسر لمن يعاني العُسر؛ والرّاحة لمن به همّ؛ والسعادة للحزين؛ والشفاء للمريض؛ والرّحمة للميِّت؛ والمغفرة للمُذنب؛ والإجابة لمن دعاك؛ فاقبل يا ربّي دعائنا وكن معنا في الشدائد وفي السرور؛ آمـــيـــن يا ربّ العـــالمـــيـــن.

وشكرًا

.

فهرست المصادر و المراجع:

أ- المصادر و المراجع:

1- أبي الهلال العسكري و مقاييسه البلاغية و النقدية - لد.بدوي طباني - دار الثقافة - ط03: 1401هـ - 1981م

2- إطلالة على التراث العربي - لد. عماد حسن مرزوق - مكتبة بستان المعرفة - الإسكندرية.مصر - ط:2008م

3- الإيضاح في علوم البلاغة - تصحيح د. محمد عبد المنعم خفّاجي - دار الكتابي اللبناني - بيروت.لبنان - ط دت

4- الأغاني - لأبي الفرج الأصفهاني - دار الكتب المصرية

5- إشكالية التلقيّ و التأويل - دراسات في الشعر العربي الحديث - سامح الرواشدة - جامعة مؤتة - أمانة عمّان الكبرى - عمّان.الأردن - ط: 2001م

6- البديع لعبد الله بن المعتّز - دار المسيرة - الإسكندرية.مصر - ط03: 1402هـ -1982م 6

7- البحث البلاغي عند العرب - تأصيل و تقييم - لد. شفيع السيّد - دار الفكر العربي - القاهرة.مصر-

8- البحث عن المنهج في النقد الحديث - للسيّد البحراوي - دار شرقيات - القاهرة.مصر - ط01: 1993م

9- البيان والتبيين ج1 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق:د. عليّ أبو ملحم - دار مكتبة الهلال - بيروت.لبنان - ط02: 1412هـ - 1992م

10- البيان و التبيين ج1 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: محمد هارون عبد السلام - مكتبة الخانجي - القاهرة.مصر - ط07: 1418هـ - 1958م

11- البيان و التبيين ج2 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة. مصر- ط07:1418هـ - 1958م

12- البيان و التبيين ج3 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة.مصر- ط07: 1418هـ - 1958م

13- البيان و التبيين ج4 - لأبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ - تحقيق: عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي - القاهرة.مصر- ط07: 1418هـ - 1958م

14- البلاغة الإصطلاحية - لعبده عبد العزيز فلقيلة - دار الفكر العربي - القاهرة.مصر - ط03: 1412هـ - 1992م

15- البلاغة العربية - لأبي سعد سليمان حمودة - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية.مصر - ط:2005

16- البلاغة العربية تأصيل و تجديد - لد.مصطفى الصاوي الجويني - دار المعارف - الإسكندرية.مصر ط:2002م

17- البلاغة تطوّر و تاريخ - لد. شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة.مصر - ط01:دت

18- البلاغة لأبي العبّاس محمد بن يزيد المبرّد - تحقيق:د.رمضان عبد التوّاب - مكتبة الثقافة الدّينية - مصر - ط02: 1405هـ - 1985م

19- الجاحظ الأديب الفيلسوف - للشيخ كامل محمد عويضة - دار الكتب العلمية - بيروت.لبنان - ط01: 1413هـ - 1993م

20- الجاحظ دائرة معارف عصره - لد.فوزي عطوي - دار الفكر العربي - بيروت.لبنان - ط: 1412هـ - 1992م

21- الزندقة و الشعوبية في العصر العبّاسي الأوّل - عطوان حسين - دار الجيل - بيروت.لبنان - ط:دت

22- الكلام و الخبر مقدّمة للسرد العربي - لد.سعيد يقطين - المركز العربي - بيروت.لبنان - ط01: 1997م

23- المدخل إلى مناهج البحث العلمي - لد. محمد محمد قاسم - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية.مصر - ط: 2006م

24- المدخل لمصادر الدّراسات الأدبية و اللّغوية و المعجمية القديمة و الحديثة - إعداد. أ.حامد صادق قنيبي و محمد عويف الحرباوي - دار الجوري - عمّان.الأردن - ط01: 1415هـ - 2005م

25- الملامح الفنّية في نقد العرب - لد. عزّ الدّين إسماعيل - الشارقة - دولة الإمارات المتحّدة - ط01: 2008م

26- المصادر الأدبية و اللّغوية في التراث العربي - لد. عزّ الدّين إسماعيل - دار النهضة العربية - بيروت.لبنان - ط:دت

27- المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي - محمد عزّام - دار الفكر العربي - مصر - ط:دت

28- المعجم المفصّل في الأدب العربي ج1 - د. محمد التوينجي - دار الكتب العلمية - بيروت.لبنان - ط01: 1413هـ - 1993م

29- المعجم المفصّل في الأدب العربي ج2 - لد.محمد التوينجي - دار الكتب العلمية - بيروت.لبنان - ط01: 1413هـ - 1993م

30- المقامات و التلقيّ - بحث في أنماط التلقيّ لمقامات الهمداني في النقد العربي الحديث - دار الفارس - عمّان. الأردن - ط01: 2003م نادر كاظم40

31- المختصر في تاريخ البلاغة - لد. عبدالقادر حسين - دار غريب - القاهرة.مصر - ط200

32- النظريات اللّسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ من خلال البيان و التبيينم - محمد الصغير بنّاني - ديوان المطبوعات الجامعية - بن عكنون.الجزائر - ط: 1994م

33- الصّحاح تاج اللّغة و صّحاح العربية - إسماعيل بن حمّد الجوهري - تحقيق:أحمد عبد الغفور عطّار - دار العلم للملايين - بيروت.لبنان - ط01: 1399هـ - 1989م

34- الصناعتين لأبي الهلال العسكري - تحقيق: عليّ محمد البجاوي و محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة الوقفية - ط01: 1371هـ - 1952م

35- العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ج2 - أبي العليّ الحسن ابن رشيق القيرواني الأزدي - تحقيق: محمد محيّ الدّين الحميد - دار الجيل - بيروت.لبنان - ط05: 1401هـ - 1981م

36- الفكاهة عند العرب - لطفي عثمان السبس - دار وائل - عمّان.الأردن - ط01: 2003-2004م

37- التلقي و الإبداع - قراءات في النقد العربي القديم - محمود درابسة - دار جرير- إربد.عمّان.الأردن - ط01: 1431هـ - 2010م

38- التلقي و السياقات الثقافية - عبد الله إبراهيم - بحث في تأويل الظاهرة الأدبية - منشورات الاختلاف - الجزائر - ط02: 1426هـ - 2005م

39- الخطابة.أصولها و تاريخها في أزهر عصورها عند العرب - الإمام محمد أبو زهرة - دار الفكر العربي - مصر - ط:دت

40- الشعراء العرب ج1 - فوّز الشعّر - دار الجيل - بيروت.لبنان - ط01: 1420هـ - 1999م

41- جهود المستشرقين في تحقيق التراث العربي الإسلامي و نشره - لد. عبّاس محمد حسن سليمان - دار المعرفة الجامعية - الإسكندرية.مصر - ط01: 1429هـ - 2007م

42- جحا في أغرب نوادره و لطائفه - د.بسّام أمين - مكتبة العربي - ط01: 1434هـ - 2013م

43- دراسات في علم البيان .الصورة البيانية في التراث البلاغي - لد. حسن طبل - دار الزهراء -مصر - ط:1986م

44- لسان العرب ج14 لابن منظور - تصحيح:أمين محمد عبد الوهاب و محمد الصادق العبيري - دار إحياء التراث العربي - بيروت.لبنان -"03: 1419هـ - 1999م

45- موسوعة أمراء الشعر العربي - لد. عبّاس صادق - دار أسامة - عمّان.الأردن - ط01: 2002م

46- محاضرات في مصادر اللّغة و الأدب - للسنة الأولى جامعي - شعبة أدب عربي - د.محمد تحريشي و أ.لطفي بوقربة - المركز الجامعي - بشّار .الجزائر - ط:2007

47- مناهج و أدوات البحث - لد. عبد الله زلطة - كليّة الآداب - جامعة نبها - ط: 2009

48- منهجية البحث العلمي - زويلف المهدي - دار الفكر - عمّان الأردن - ط: 1996م

49ـ معجم الأدباء أو إرشاد الأديب إلى معرفة الأديب ـ أبي عبيدة الله ياقوت بن عبدالله الرّومي الحموي ـ عليّ القاسم ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.لبنان ـ ط01: 1411هـ ـ 1991م

50ـ معجم المصطلحات البلاغية و تطوّرها ج1 ـ لأحمد حمد الجبّوري ـ تأليف أحمد مطلوب ـ المجمع العراقي ـ ط: 1403هـ ـ 1983م

51ـ مقاييس اللّغة ج2 ـ لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء ـ تحقيق: عبد السلام هارون ـ دار الفكر العربي ـ مصر ـ ط: 1399هـ ـ 1979م

52ـ مقدّمة في علمي الدّلالة و التخاطب ـ لد. محمد محمد يونس عليّ ـ دار الكتاب الجديد ـ لبنان ـ ط01: يونيو 2004م

53ـ نقد النثر لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.لبنان ـ ط01: 1416هـ ـ 1995م

54ـ نقد العرب الأدبي في ثلاثة عصور ـ لد. مصطفى الصّاوي الجويني ـ دار المعرفة لجامعية ـ الإسكندرية.مصر ـ ط: 1998م

55ـ نظرية القارئ و قضايا نقدية و أدبية ـ لد. السيّد إبراهيم ـ مكتبة زهراء الشرق ـ القاهرة.مصر ط: (دت)

56ـ نظرية التلقيّ في تراثنا النقدي و البلاغي لـد. شعبان عبد الحكيم محمد ـ دار العلم و الإيمان ـ ميدان المحطّة ـ ط: 2010م

57ـ نظرية التلقيّ مقدّمة نقدية.لروبرت هولب ـ ترجمة: عزّ الدّين إسماعيل ـ المكتبة الأكاديمية ـ القاهرة.مصر ـ ط:2000م

58ـ نظرية الشعر عند الجاحظ ـ لد. مريم محمد المجمعي ـ دار مجدلاوي ـ عمّان. الأردن ـ ط01: 2009ـ2010م

59ـ نظرية أبي عثمان عمر بن بحر محبوب الجاحظ في النقد الأدبي ـ لد. محمد عبد الغنّي المصري ـ دار مجدلاوي ـ عمّان. الأردن ـ ط01: 1408هـ ـ 1987م

60- علم البيان بين القدماء و المحدثين دراسة نظرية تطبيقية ـ أ.د حسني عبد الجميل يوسف ـ دار الوفاء ـ الإسكندرية.مصر ـ ط01:2007م

61- علم الدّلالة.تأليف:كلود جرمان ـ ريمون لوبلون ـ ترجمة:نور الهدى لوشن ـ المكتب الجامعي الحديثة ـ ط:2006م

62- علماء العرب والمسلمين و أعلامهم ـ د. مصطفى الجيوسي ـ دار أسامة ـ عمّان.الأردن ط: 2005

63- في البلاغة العربية،علم البيان ـ لد.عبد العزيز عتيق ـ دار النهضة العربية ـ بيروت.لبنان ـ ط:دت

64- فنّ السخرية في أدب الجاحظ من خلال كتاب التربيع و التدوير،البخلاء،الحيوان ـ لد. رابح العوبي ـ ديوان المطبوعات الجامعية ـ السّاحة المركزية ـ بن عكنون. الجزائر ـ ط:دت

65- فنّ الخطابة و تطوّره عند العرب ـ إيليا حاوي ـ دار الثقافة ـ بيروت.لبنان ـ ط:دت

66- قراءة النّص و جماليات التلقيّ بين المذاهب الغربية الحديثة و تراثنا النقدي ـ دراسة مقارنة ـ لد. محمود عبّاس عبد الواحد ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة.مصر ـ ط01: 1417هـ ـ 1992م

67- قطوف أدبية ـ دراسات نقدية في التراث العربي ـ تحقيق حول التراث ـ لد.محمد هارون عبد السلام ـ مكتبة السنّة ـ ربيع الخير1409هـ ـ نوفمبر 1988م

68- رسائل الجاحظ.الفصول المختارة من كتب الجاحظ ج1 ـ اختيار الإمام عبد الله بن حسّان ـ شرحه و علّق عليه:محمد باسل عيون السود ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.لبنان ـ ط: 1420هـ ـ 2000م

69- تاج العروس ج11 ـ لمحمد مرتضي الحسين الزبيدي ـ عليّ هلالي ـ مطبعة حكومة الكويت ـ ط02: 1407هـ ـ 1987م

70- تاريخ آداب العرب ج02- جورجي زيدان ـ الجزائر ـ ط:2007م

71- تاريخ نقد العرب في العصر الجاهلي إلى القرن الرابع هجري ـ الأستاذ: طه إبراهيم ـ ط:دت

72- تهذيب اللّغة لأبي منصور محمد بن أحمد الأزهري - تحقيق: أحمد عبد الحليم البيروني - الدّار المصرية - القاهرة.مصر - ط: دت

73- تراجم طبقات النّحاة و المفسّرين و الفقهاء - الشيخ تقيّ الدّين ابن قاضي الشافعي - تحقيق:د. محسن غيّاض - الدار العربية للموسوعات - بيروت.لبنان - ط01: 1428هـ - 2008م

ب - الدوريات و المقالات الأدبية:

1- المقالات الأدبية:

1- البيان لؤلؤة الجاحظ - لد. حسّان الطيان - مجلّة الوعي الإسلامي - سوريا - العدد 568 أكتوبر/نوفمبر 2012م

2- البيان و التبيين بوصفه نقدًا شعريًا - لدز قيس كاظم الحنابي - جريدة التّحاد - العراق 2005م

3- الكتابة بالشفاه - لد.رياض كاظم - جريدة العالم - العدد1247 - نوفمبر 2011 - دار العلم - العراق

4- اضطرابات النطق:أنواعها،أسبابها - بقلم.سمّو الإحساس - منتدى الإحتياجات الخاصّة - 30 أفريل 2010م

5- عيوب النّطق و مشكلاتها،أنواعها،أسبابها،آثارها - بقلم:حمدان رضوان أبو عاصي - منتدى ديوان العرب - 16 سبتمبر 2008م

2- الدوريات و المجلاّت:

1- مجلّة:أوقاف - المكتبة الإسلامية [1422هـ - 2001م] على الرّابط التّالي: J 1995 2015&Islamweb.net

2- معارف: مجلّة علمية فكرية مُحكمة - القسم الأوّل - الجزائر - العدد 04 - 2008م

فهرس المحتويات